الإخوة السود

ليزا تتسنر

ترجمة: د. خليل الشّيخ



الإخوة السود

رواية مصوّرة

النص: ليزا تتسنر

الترجمة: د. خليل الشَّيخ





في أواخرِ صيفِ عامِ 1838م، وصلَ في صباحِ أحدِ الأيّامِ إلى وادي ڤيرزاسكا× أحدُ الرّجالِ. كانَ ذلكَ الرَّجلُ يمشي بتهَوُّرٍ ولا يُقيمُ وزناً للصُّخورِ، أو لأسماكِ السَّلْمونِ الّتي تتقافَزُ في مِياهِ النَّهرِ. لم يكُن ذلكَ الرَّجلُ ينظرُ إلاّ إلى نفسِهِ، وكانَ غاضِباً لأنَّ قريةَ سوغنونو لم تظهَرْ معالِمُها إلى الآن.

وعندما بدأتْ طلائعُ المنازِلِ تلوحُ، عرفَ أنّهُ قد صارَ على مقرُبةٍ منَ القريةِ، فجلسَ ليستريحَ على قارعةِ الطريقِ، وهو يتجوَّلُ بنظرِهِ بينَ المنحدَراتِ الحادّة. فقالَ في نفسِهِ: ليسَ ثمّةَ محاصيلُ زراعيةٌ ها هُنا، وعلى الأهالي أن يفكِّروا بإعطائي أبنائِهم.

× يوجد هذا الوادي في سويسرا وهو مشهور بمنحدراته الشديدة، والعديد من مساقط المياه. وبيوت القرى حوله مشيّدة من الحجر الأبيض الرمادي.

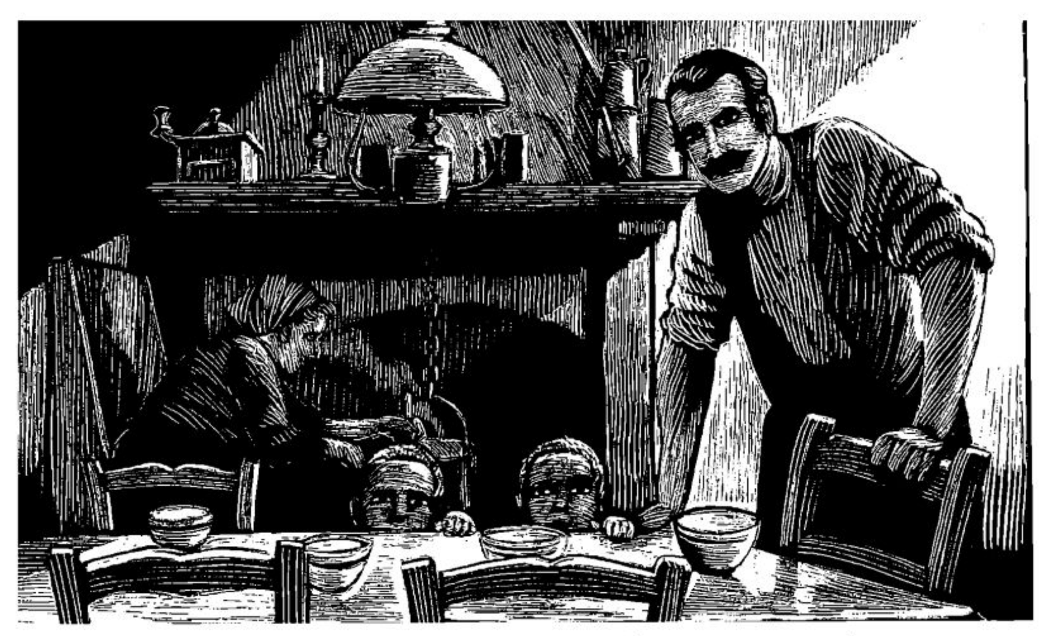




كانا يحصُدانِ الأعشابَ بالمِنجَلِ، وكانَ جوليان يقومُ بجَمعِ الأعشابِ ونقلِها إلى الأعلى.



كانَ جوليان وأمُّهُ يتحرّكانِ بهُدوءٍ وحذَر، لأنَّ الأفاعيَ تنتشرُ في كلِّ مكانٍ ها هُنا. وعلى من يعملُ في هذا المُنحدَرِ أن يكونَ أسرعَ منها. ظلَّت الأمُّ وابنُها يحصُدانِ مدّةَ ساعةٍ أخرى. بعدَها جمعا ما حصداهُ، ووزّعاهُ على السلّتَين وشَرعا بالهُبوطِ بحذَرٍ، مثلما سبقَ لهما أن صعِدا. وكانَ الرَّجلُ قد وصلَ في تلكَ الأثناءِ إلى القريةِ.

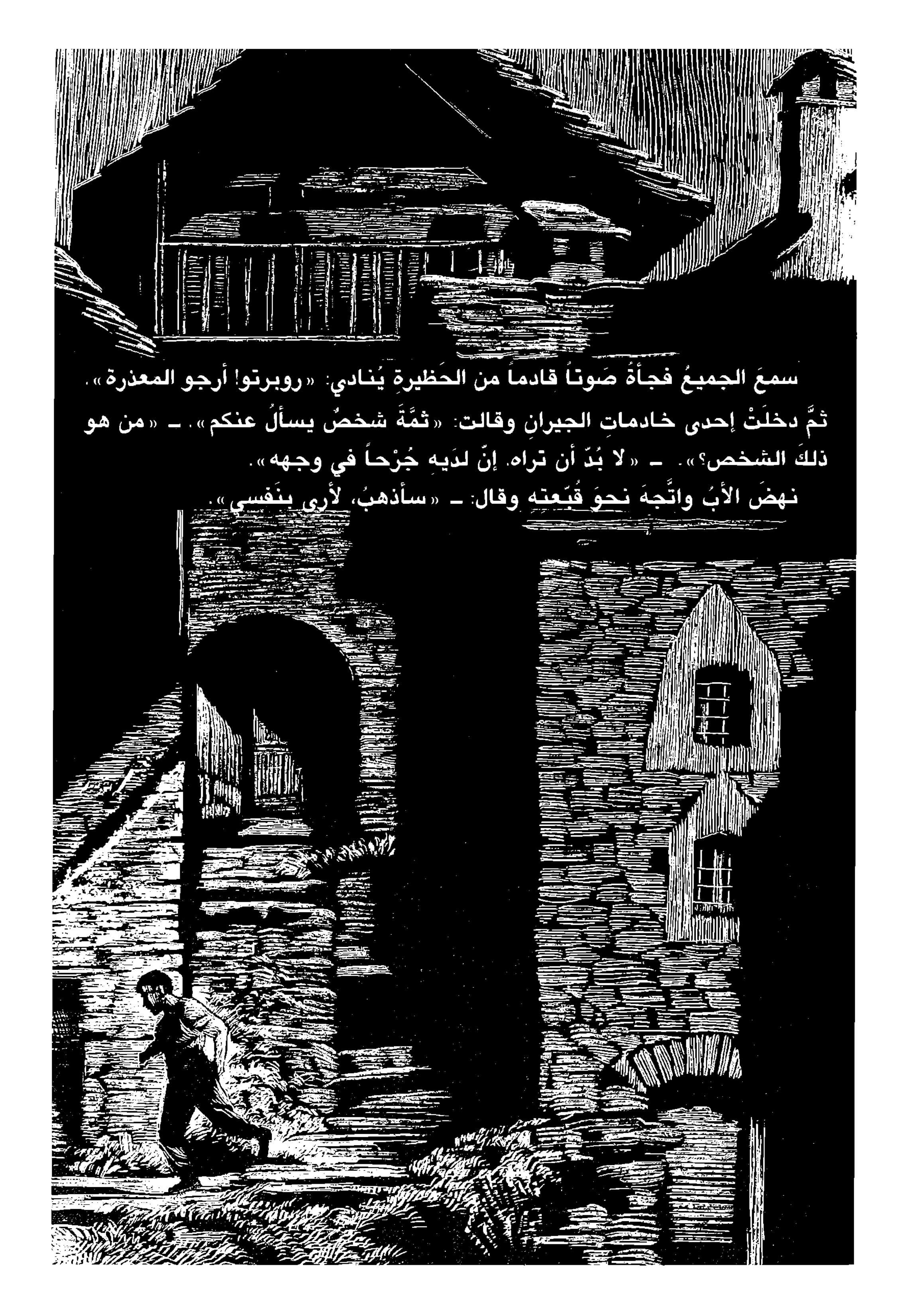


عندما عادَ الأبُ في المساءِ ودخلَ إلى المطبخ، سأل عن التَّوتِ البَرّيّ. لكنَّ جوليان نسيَ أن يجمعَ شيئاً من تلكَ الثِّمارِ أثناءَ العملِ في الغَابةِ، فصاحَ بهِ أبوه:

ـ ماذا؟ نَسيت! ها قد بلغتَ الثانيةَ عشرةَ من عُمرِكَ، وأنتَ لا تصلحُ لشيء!

بقيَ الجميعُ صامتينَ يتناولونَ الحَساءَ المصنوعَ من الحِنطةِ السَّوداء. وكانتِ الأمُّ والجدَّةُ تُساعدانِ الطِّفلَين التَّوأم. أما قِطعةُ الجُبنِ المَوجودةُ على المائدةِ، فكانتْ من نصيبِ الأبِ وحدَه.





سمعَ الجميعُ فجأةً صَوتاً قادماً من الحَظيرةِ يُنادي: «روبرتو! أرجو المعذرة».

ثمَّ دخلَتْ إحدى خادماتِ الجيرانِ وقالت: «ثمَّةَ شخصٌ يسألُ عنكم». - «من هو ذلكَ الشخص؟». - «لا بُدّ أن تراه. إنّ لدَيهِ جُرْحاً في وجهه».

نهضَ الأبُ واتّجهَ نحوَ قُبّعته وقال: - «سأذهبُ، لأرى بنفسي».

اقتربَ روبرتو من ذلكَ الرَّجلِ وسألَه:

- هل ترغبُ في الحديثِ معي؟

أحضرَ الرّجلُ كُرسيّاً، فجلسَ عليهِ روبرتو، ثمّ طلَبَ له الرَّجلُ شيئاً ليشربَه. أخذ الرَّجُلانِ يحتسيانِ ما أمامَهما بصمتٍ، وبدَتْ على ملامحِ الرَّجلِ معالمُ النُّفورِ من روبرتو، الّذي كانَ يتأمَّلُ وجهَ الرَّجلِ بكراهيَةٍ وقَسوة. وعندماَ همَّ روبرتو أن يسألَ الرَّجلَ عن مُرادِهِ، قالَ الرجل:

- سمعتُ أنَّ لديكَ ولداً.

- نعم. هذا صحيح.

- وهل هو في الثالثةَ عشرةَ من عُمره؟

- سيبلُغُ هذا السِّنَّ قريباً.

- إنّني أُفتِّشُ عن أولادٍ بهذا السّن.

- هكذا! ردَّ روبرتو بتَهكُّم..





- إنّني آخذُ الأطفالَ للعملِ لمدَّةِ نصفِ عامٍ في ميلانو. ثمَّ أضاف: إنَّ الأطفالَ يعملون هُناكَ، ويحصلُ الأَبُ على ثلاثينَ فرنكاً مقابلَ عملِ ابنهِ هُناك.

- أنا لا أوافقُ على بَيعِ واحدٍ من أبنائي مقابلَ ألفٍ من الفرنكات.

- آه!

- كلاّ! صاحَ روبرتو. فطالما يوجدُ لدَينا ما يكفينا من الطَّعامِ والشَّرابِ، فإنّني على استعدادٍ لأن أبيعَ آخرَ قطعةٍ من مَلابسي، لكنّني لا أُفرِّطُ بواحدٍ منَ أولادي.

ظلَّ الرجلُ ذو النَدبةِ يتأمّلُهُ ثمَّ قال:

- لقد قالَ هذا كثيرونَ من قبلِكَ، لكنَّهم صاروا فُقراءَ لا يجدونَ قوتَ يومِهم، بينَ عَشيَّةٍ وضُحاها.

- إنَّ لدينا، ولِلّهِ الحمدُ، ما يكفينا من المؤونة. ردَّ روبرتو بخُشونة.

- أنتَ على حقّ. قالَها الرّجلُ وهو يُحاولُ استرضاءَهُ، ثمَّ أضاف: سآتي على كلِّ حالٍ في العامِ القادم.



وقفَ روبرتو، وقالَ وهو يحدِّجُ الرَّجُلَ بنظراتٍ حادّة:

ـ حسناً. إذا عُدتَ، فستسمعُ الجوابَ نفسَه. كُن على ثقةٍ من ذلك. انقبضَ وجهُ الرَّجلِ على نحوٍ غَريبٍ وقال:

ـ بل سآتي مُجدَّداً، وستُعطيني وَلَدكَ ليذهَبَ إلى ميلانو، بكُلِّ سُرور.

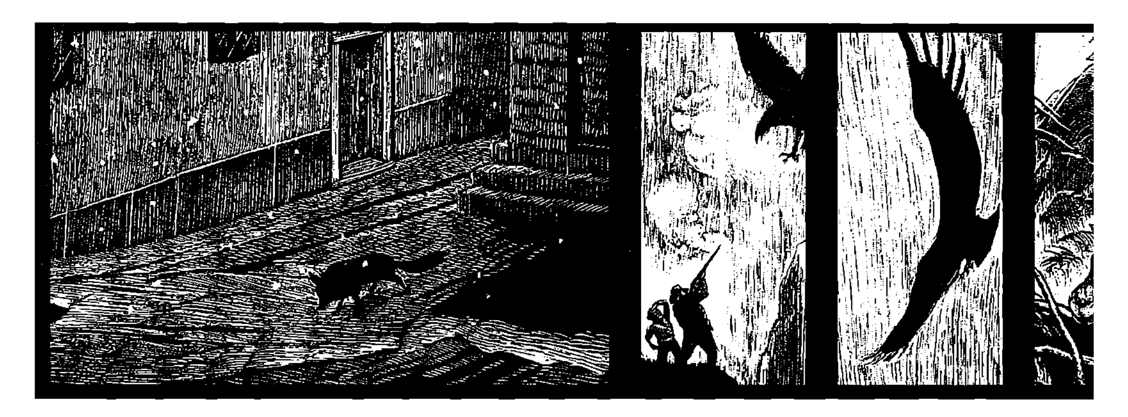
ـ بكلِّ سُرور؟ لا! ردَّ روبرتو، الّذي أزاحَ كأسَهُ جانباً ومضى.

كانتِ العائلةُ ما تزالُ مجتمعةً عندَ الموقدِ عندَما عادَ الأب.



ـ ما الأمر؟ سألتِ الأُم.
ـ كانَ ثمّةَ رجلٌ لهُ جُرحٌ في وجههِ يودُّ التحدُّثَ معي.
ـ وماذا كانَ يُريد؟
ـ إنَّهُ يشتري الأطفال.
ـ الأطفال! صاحَتِ الأُمُّ والجدّةُ مذعورتَيْنِ، فانتقَلَ هذا الذُّعرُ إلى وجهِ جوليان الَّذي دخلَ لحظةَ رُجوعِ والده.
ـ يدفَعُ الرَّجلُ ثلاثينَ فرنكاً ـ وكانَ الأبُ يُشيرُ في تلكَ الأثناءِ إلى جوليان ـ مقابلَ أن يقضيَ فصلَ الشّتاءِ في ميلانو، ليعملَ هناك.
ـ وماذا قُلتَ لذلكَ الرجل؟
ـ إنّ ثلاثينَ فرنكاً هيَ مبلغٌ قليلٌ مقابلَ هذا الوَلدِ الكبير. فعلى الرَّجُلِ أن يدفعَ ستّينَ فرنكاً. قالَ الأبُ ذلكَ وهو يضيِّقُ عينيه.
ـ أيُّها الأبُ السيِّئ! صاحتِ الجدّةُ، ورمَتْ قِطعةً من الخشَبِ نحوَهُ، استقرَّتْ عندَ قَدَميه. ما الّذي وجدتَهُ قليلاً؟
ـ إنّهُ سيعودُ في العامِ القادمِ على كُلِّ حال. قالها الأبُ وهو ينظُرُ إليها ضاحكاً.
ـ ولماذا يعود؟
ـ لقد قالَ لي إنّني سأُعطيهِ عندَها ولدي، وأنا سعيدٌ، مقابلَ ثلاثينَ فرنكاً.
ـ هذا شَيطان! قالتِ الأم.
ضحكَ الأبُ وقال:
ـ لقد كانَ يبدو على تلكَ الشاكِلة.





استيقَظَ جوليان مُبكِّراً في اليوم التالي، فكَمنَ للرَّجلِ ذي النَدبةِ عندَ مَخرجِ القريةِ، لكنَّهُ لم يتعرَّضْ لهُ وتركَهُ يمرُّ بسلامَ. كانَ لدى جوليان الكثيرُ من التساؤلاتِ، لكنَّ أُمَّهُ لم ترغَبْ في الحديثِ عن هذا الأمرِ، أما جدَّتُهُ فكانَ رفضُها قاطعاً.

وقد رغِبَ الأبُ، هو الآخرُ، في نسيانِ ما قالَهُ لهُ الرَّجُل.

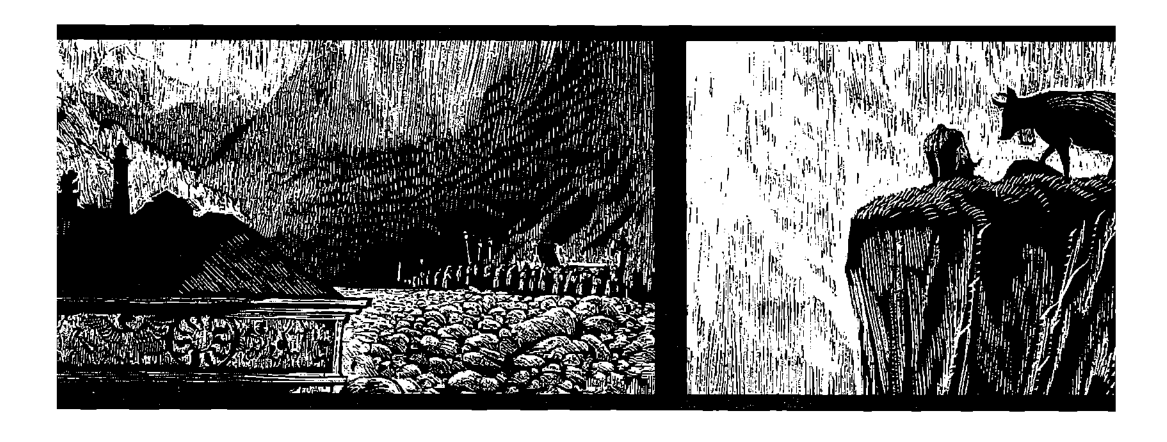
«سأعودُ في العام القادم مرَّةً ثانية».

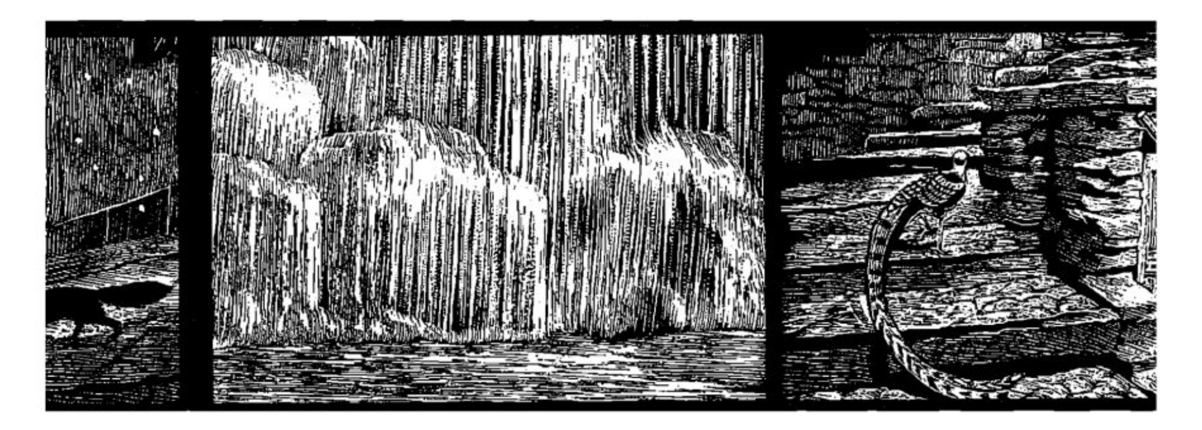
فقد كانتِ الجُملةُ تتكرَّرُ في ذاكرتِهِ وكأنَّها لَونٌ منَ التَّهديد.

وعندما كانَ يقعُ أمرٌ من الأُمورِ في حياةِ العائلةِ، وما كانَ أكثرُ ما يقَعُ، كانتِ العائلةُ تتذكَّرُ ذلكَ الكلام.

وقد وقعَ الكثيرُ للعائلةِ في هذا العام. فقد سادَ الصَّقيعُ إبّانَ فصلِ الشِّتاءِ، ثمَّ تلاهُ ربيعٌ جافٌّ، وصيفٌ يتَّسِمُ بالجدب. وصارَ الغِذاءُ يتناقصُ حتّى صارتِ الحيواناتُ لا تجدُ إلاّ ورقَ الشَّجرِ لتتغذّى عليه.

وفي عصرِ أحدِ الأيّام ذهبتِ الأمُّ إلى أحدِ المُنحدراتِ الحادّةِ، كي تقطَعَ عدداً من غُصونِ الأشجارِ، ولم تعُدْ حتّى بعدَ أن حلَّ الظَّلامُ، فذهبَ جوليان ليبحثَ عنها.





عثرَ جوليانَ على أُمِّهِ مُغميً عليها. فقد وقعَتْ على ما يبدو، وكُسِرَتْ رجلُها. فما العمل؟ وكيفَ يُمكِنُ للعائلةِ أن تدفعَ أُجرَةَ الطَّبيب؟

علمَ الرَّجُلُ ذو النَّدبَةِ بالحكايةِ، أثناءَ إقامتهِ في أحدِ الكُهوف.

ـ لقدِ انتهى الوَقت. أنتُم بحاجةٍ إليَّ في هذا العام. سأدفعُ عِشرينَ فرنكاً.

ـ اسكُتْ أيُّها اللَّعين.

ـ وسأُنقِصُ المبلغَ خمسَ فرنكاتٍ مقابلَ كُلِّ لَعنة. ثمّ أضافَ الرَّجُل: روبرتو! عليكَ أن تفكِّرَ بزَوجتِك.

خطا الأَبُ نحوَ البابِ، ثمَّ قال:

ـ متى يتوجَّبُ عليهِ أن يُسافر؟

ـ عليهِ أن يكونَ في لوكارنو بعدَ غد. وأن يكونَ مَوجوداً في بان بيردو القريبةِ من البحرِ أوَّلاً. سنسافِرُ بالقارِبِ إلى ميلانو مباشرةً. وعليكَ أن تعرفَ أنَّ المتعهِّدَ سيدفَعُ لكَ المالَ، بعدَ أن يتأكَّدَ من وُصولِ جوليان إلى لوكارنو.



بدأ المطرُ يتساقَطُ ليلاً. وعندما أيقظَتِ الجدَّةُ جوليان وتأمَّلَ منظرَ المطرِ الغَزيرِ، فوجِئَ بمئاتِ الجداولِ المائيّةِ الصغيرةِ وهيَ تهبِطُ من أعالي المُنحدرات. وقد أصغى جوليان إلى هَديرِها وهيَ تهبطُ إلى الوادي من شِعابِ الجَبل.

كانت أمُّهُ ترقُدُ محمومةً في سريرِها، وتتألَّمُ عندَ كُلِّ حركة.

- لا تُسافِرْ إلى لوكارنو في مثلِ هذا الطقس!

- لا بُدَّ من السَّفَر. ردَّ جوليان الّذي كانَ يعلمُ أنّ الرجلَ ذا النَدبةِ ينتظرُهُ مساءً عند كهفِ «بان بيردو».

- وداعاً يا أمّاه. استلقي بهُدوءٍ، وسيأتي الطَّبيبُ إلى هُنا يومَ غدٍ، وستُشفَينَ ويتلاشى الألم.

كانتِ الجدَّةُ قد وضعَتْ لحفيدِها شرائحَ من دقيقِ الذُّرة، وقطعةً من الجُبنِ وبضعَ حَبّاتٍ من العِنَبِ في كيسٍ صغير. وقد قبَّلَتْهُ وهي تودِّعُهُ قائلةً:

- مع السلامة.

- إلى اللقاءِ. قالَ جوليان وهو يُصافحُها ويتناولُ الكيسَ منها.

كانَ الأبُ يقفُ تحتَ المطرِ وهو يضحَكُ، وكانَ جوليان يستطيعُ أن يرى على نَحوٍ دقيقٍ كيفَ كانَ والدُهُ يحرِّكُ كتفَيهِ، ويهزُّ رأسَهُ من شِدَّةِ الفرح.

- أنا مُسافرٌ يا والدي.

فجأةً تقبَّضَ وجهُ الأبِ، وتلاشَتْ ضِحكاتُهُ، فقد نسيَ الأبُ في غمرةِ فَرحِهِ بنُزولِ المطرِ سفرَ ولدِهِ إلى ميلانو.

- جوليان، هل أنتَ غاضب؟

- كلاّ يا أبي. إنّني آملُ أن تحصلَ على المالِ لأجلِ أمي. أما في العامِ القادمِ فسأذهبُ إلى الخدمة.

- أعرفُ ذلكَ يا جوليان، فستكونُ فتىً شُجاعاً في الثالثةَ عشرةَ، وعملُكَ هناكَ لن يمتدَّ إلى أكثرَ من بضعةِ أشهر.

لكنَّ جوليان كانَ شديدَ الألم، وكانَ يودُّ لو يستطيعُ أن يخبرَ أباهُ عما أخبرَتهُ إيّاهُ أنيتا، الّتي قالت له: إن كثيراً من الأطفالِ الّذينَ يذهبونَ إلى هناكَ للعملِ في تنظيفِ المداخنِ يموتون.

- هل كلُّ شيءٍ على ما يُرامُ يا جوليان؟

- نعم يا أبي. ستأتي أنيتا عَصراً وتأخذُ العُصفورَ النقّارَ، وطائرَ القُرقُفِ والبومة. أما الأرنبُ فسيكونُ للتَّوأم. ثم صافحَ أباهُ وسارَ في طريقِه.

دخلَ جوليان إلى الكنيسةِ فرأى سيِّدتَينِ تُصَلّيانِ، شُكراً للّهِ تعالى على نُزولِ المطر. قرعَ جوليان أجراسَ الكنيسةِ وحيّا الجميعَ، ثم غادرَ الكنيسةَ من بابِها الخلفي.

كانَ جوليان يرغبُ أن يقفَ عندَ منزلِ أنيتا، كي يراها، لكنَّهُ سارَ في طريقهِ مدركاً أنّها ستدري عن سفرهِ إلى ميلانو في وقتٍ مُبكِّر.

لكنَّهُ رآها فجأةً في المكانِ الذي كانَ قد كمَن فيهِ للرَّجلِ ذي النَدبَةِ قبلَ عامٍ من اليوم. تقدَّمَت أنيتا نحوَهُ وسألته:

ـ هل ستسافرُ حقّاً؟ لقد وعدتَني بأنَّكَ لن تُسافر.

ـ لم يسبِقْ لي أن وعدتُكِ. ردَّ عليها وهو يهُزُّ رأسَه.

ـ بل وعدتَني.

ـ لنفرِضْ أنَّني وعدتُكِ. فإنَّ والدي في أمسِّ الحاجةِ إلى المالِ لعِلاجِ أمّي وعليَّ أنْ أذهبَ إلى لوكارنو لإبلاغِ الطبيب.

حاولَ جوليان أن يضحكَ وهو يقول:

ـ لن تطولَ إقامتي هُناكَ أكثرَ من نصفِ عام. بعدَها سأعودُ إلى هُنا، إلى جوارِك.

ـ ليتَ هذا يحدُث!

مضى جوليان مُسرعاً، وكانَ المطرُ ينهمرُ فيَسيلُ من تحتِ ملابسهِ ويُغرِقُ جسدَهُ بالماءِ من رأسهِ إلى أخمصِ قدميه. وكانَ عليهِ أن يقطعَ جداولَ الماءِ التي كانَتْ تغمُرُ معظَمَ جسدِهِ أثناءَ ذلك.

لم يكُنْ جوليان وحدَهُ، فقد كانَ يسيرُ على جَنباتِ الوِديانِ رجالٌ ونساءٌ في طريقِهم إلى لوكارنو، لحُضورِ السُّوقِ الّتي ستُقامُ هُناك.





كانَ جوليان يحدِّثُ الفلاحينَ الذينَ كانَ يسبقُهم في المَشي عن ضرورةِ ذهابِهِ إلى الطّبيبِ كي يُعالِجَ والدتَهُ، فكانوا يعرفونَ أنَّهُ ابنُ روبرتو، وكانوا يطلبونَ منهُ أن لا يتعجَّلَ في مِشيَتِهِ لأنَّ الصُّحبةَ في السَّيرِ جَميلةٌ وضروريّةٌ، ويَرجونَهُ أن يبقى إلى جانبِ البهائمِ وهي تَعْبُرُ الجداولَ لأنَّ ذلكَ يُهدِّئُ من رَوعها.

كان الرَّجلُ الأكبرُ سِناً يقودُ حماراً محمَّلاً بصُرَّةٍ من المناديل، والأقمشةِ الفاتحةِ والغامقةِ والملوَّنة. وكانَ الرَّجلُ الآخرُ يحملُ وعاءً جِلديّاً فيهِ عددٌ كبيرٌ من البَيضِ، وبعضَ قِطَعِ الزُّبدة.

ظهرَتِ الشّمسُ، لكنَّ الغُيومَ ظلَّت تغمرُ فضاءَ الوِديانِ الّتي كانَ صوتُ الماءِ فيها يهدُرُ بقُوّة.

في بريوني أرادَ الفلاّحانِ اللذانِ رافقَهُما جوليان في السَّير، العَودةَ، ودَعيا جوليان إلى مُرافقتِهما. فكَّرَ جوليان قليلاً، وأخبرَهُما بأنَّ عليهِ أن يُسرعَ، ثم أخذَ يُهَروِل.

كانَ على جوليان أن ينتظِرَ قليلاً عندما صارَ خلفَ القَريةِ، لأنَّ وادياً فرعياً آخرَ كانَ مملوءاً بالماءِ يتَّجِهُ صوبَ ڤيرزاسكا. كانَ الوادي محمّلاً بالخشبِ وبقايا الحيواناتِ والنباتاتِ، وكانَ الماءُ يندفعُ بقُوَّةٍ إلى شاطئِ البحر. رأى جوليان أنَّ المناطقَ كلَّها تغرقُ في بحرٍ من الماءِ، ولم يكُنْ في مقدورِ أحدٍ أن يُواصِلَ السَّير.

وكانتِ الفلاّحتانِ اللّتانِ ترتَديانِ مَلابسَ ملوَّنةً حزينتَينِ تتساءلانِ بألم:

- ماذا نفعلُ الآن؟ إنّ علينا أن نصلَ إلى لوكارنو، لنبيعَ ما نحنُ بأمسِّ الحاجةِ إليه. والآن يتعذَّرُ علينا أن نصلَ إلى هُناك.

- إنّ علينا أن نبعثَ أحداً إلى بريوني، كي يدعوَ الرِّجالَ لمساعدتِنا. قالت إحدى النساء.

لاحظَ جوليان أنَّ الفلاّحَيْنِ اللَّذينِ كانا معهُ قد رجَعا من جديدٍ، وكانَ وراءَهُما حِصانٌ لأحدِ رجالِ الدِّينِ وصَبيّانِ يقودانِ قطيعاً من الأغنامِ نحوَ لوكارنو. لكنّ رجلَ الدّينِ قالَ عندَما رأى المياهَ تغمرُ الأمكنة:

- سأعود، وسأنتظِرُ النجدة.



أرادَ الصبيّانِ أن يسلُكا بقطيعِ الأغنامِ الطَّريقَ الجبليَّ، فصمَّمَ جوليان أن ينضمَّ إليهما ويَمضيَ في صُعودِ الجبل. بعدَ ساعةٍ منَ المَشي هَبطوا باتّجاهِ وادي ڤيرزاسكا. بعدَها صارَ المكانُ أكثرَ اتّساعاً وخصباً. كانت أحواضُ المياهِ تنتشرُ على امتدادِ حُقولِ القمحِ، وكانتْ قنواتُ الماءِ العَريضةُ تتدفَّقُ على جَنباتِ الطُّرُقِ الضَّيِّقَة.

وعندما وصلوا إلى لاڤرتتزو بعد زمنٍ طويلٍ، التقوا بالكثيرِ من الناسِ، الذاهبينَ إلى السوق. فرأَوا سمكَريّاً وصبيَّهُ، وآخرَ ممن يعملونَ في صناعاتِ القَشِّ، وكان يضعُ عدَّةَ العملِ الخاصَّةَ بهِ في كيسٍ يحملُهُ على ظهرِهِ، كما رأوا بعضَ الفلاحينَ، الّذينَ يحملونَ العسلَ ليبيعوهُ هُناك. بعدَ ذلكَ صارَ الطّريقُ يَضيقُ، ويغدو أكثرَ وُعورةً وانحِداراً وخُطورةً، فدبَّ بعضُ الخَوفِ في فُؤادِ جوليان. فصارَ يُمسِكُ الصُّخورَ بيَديهِ حتّى لا يقعَ أرضاً.

وعندما كانَ يرى أنَّ الظّلامَ ينتشرُ بينَ الصُّخورِ، كانَ جوليان يقفزُ ليمشيَ تحتَ أشعَّةِ الشَّمسِ المُشرقة.



وقُبَيلَ الوُصولِ إلى ڤوغورنو، رأى الرِّجالُ شجرةَ كستناءٍ ضخمةً، فتلمَّسوا من خلالها الطَّريقَ إلى الجسر. لكنَّهم عجزوا عن عُبورِ جِهاتِ النَّهرِ الأُخرى، فتتبَّعوا آثارَ الماعِزِ وساروا خلفَها، ثمَّ هَبطوا الجبلَ حتّى وصلوا إلى وادي ڤيرزاسكا. وبعدَ أن ساروا ما يُقاربُ الساعةَ، رأى جوليان البحر، للمرَّةِ الأولى، وهوَ بحرُ لاغوماغيرو الّذي سبقَ لجدَّتِهِ وأبيهِ أن تحدَّثا عنه.



بعدها صارَ جوليان يمشي وحدَه. وقد صاحَ عندما رأى سهلَ لوكارنو مُمتدّاً أمامَه. عندها شعرَ جوليان بالجُوعِ، لكنَّهُ رأى أنَّ ما كانَ يحملُهُ من طعامٍ قد تبلَّلَ بالماء. رمى جوليان تلكَ القِطعةَ المهروسَةَ في البِركةِ، فشاهدَ على إثرِ ذلكَ مجموعةً من أسماكِ السَّلْمون تتحرَّك.

نَزَلَ جوليان إلى الماءِ، وعندَما رفعَ رأسَهُ، سمعَ صوتَ قَهقَهةٍ عاليةٍ جريئة. نظرَ جوليان فرأى أمامَهُ فتًى نبيلَ الملامحِ، وإن كانَ رثَّ الثياب.

ـ لماذا تضحَك؟ هيّا انزلْ إلى الماءِ وساعِدْني في صَيدِ أسماكِ السَّلمون!

تناولَ جوليان كيسَ الطَّعامِ وأوضحَ للفتى كيفَ يُمكِنُهُ أن ينصُبَ فَخّاً للأسماك. أما الفتى الآخرُ فقد تناولَ حفنةً من القَشِّ، وعندَما عثرَ على بعضِ الخشبِ الجاف أشعلَ النارَ فيه.

ـ «ما اسمُك؟». ـ «ألفريدو».

ـ «وأنا جوليان. من أينَ أنتَ قادم؟». ـ «أنا قادمٌ من وادي ميسوكو».

ـ «وهل هذا الوادي بعيد؟» ـ «هو على مسافةِ بضعِ ساعاتٍ من المشي».

كانَ الفتى يتحدَّثُ بجُمَلٍ مُختَصرةٍ وعباراتٍ مُراوِغة. حدَّقَ جوليان في عَينَي ألفريدو، ثمَّ سألهُ بعدَ شيءٍ من التفكير:

ـ «هل أنتَ في الطّريقِ إلى ميلانو؟». ـ «كيف عَرفْت؟».

ـ «لأنّني أنا الآخرُ ذاهبٌ إلى هُناك». ـ «أنت! لقد ظننتُ أنّكَ من إحدى القُرى المجاورة».

تحدَّثَ جوليان عن والدَتِهِ وعنِ المالِ اللاّزم لعِلاجِها، ثمّ سأل ألفريدو:

ـ «وماذا عنك؟». تمتمَ ألفريدو وقال: ـ «ثمَّةَ سرٌّ في الأمر».

ـ «سرّ!». أثارتِ الكلمةُ فُضولَ جوليان، لكنَّ ألفريدو كان مَشغولاً باستخراجِ قطعةِ خُبز. وضَّحَ ألفريدو أنّهُ يرغَبُ في أن يُقسِمَ كلٌّ منهما، في ما بعد، قسَمَ الصّداقةِ والإخلاصِ، مثلما يفعلُ الفُرسانُ في الحِكايات.

ـ «هل تستطيعُ القراءة؟ سألَهُ جوليان وقد فَغَرَ فاهُ من الدَّهشة».

ـ «والكتابَةَ أيضاً».

ـ «وكيفَ تذهبُ إلى ميلانو لتعملَ منظِّفاً للمداخن. سألَهُ جوليان وهو يهزُّ رأسَهُ متعجِّباً».

ـ «لقد قُلْتُ لكَ ثمَّةَ سِرّ. هيّا بنا وإلاّ تأخّرنا عن موعدِنا في لوكارنو».



لم يكَدْ جوليان يُفيقُ من الدَّهشةِ؛ لأنَّهُ لم يسبقْ لهُ أن رأى مدينَةً من قبل.

وقد استطاعَ بمُساعدةِ ألفريدو أن يصلَ إلى عيادةِ الطّبيب. كانَ للمبنى واجهةٌ نَظيفةٌ وبوّابةٌ نُحاسيّةٌ، وهي أشياءُ لم يسبِقْ لجوليان أنْ عرَفها.

فتحَتْ له إحدى الممرِّضاتِ البابَ ووعدَتْهُ أنَّ الطبيبَ سيقومُ بزيارةِ والدتهِ في القَريبِ العاجِلِ، لأنَّ لَديهِ عملاً في المكانِ الّذي تُوجَدُ فيهِ قريتُه. شكرَها جوليان، ثمّ تلاشى الولدانِ في الجُمهورِ المُحتشِدِ في السّوق:



موسيقى، حيواناتٌ لم يسبِقْ له أن رآها، وأناسٌ كثيرون، يُعاينونَ مختلفَ البضائعِ المعروضَةِ ويتحدَّثونَ عنِ الأسعار. بقيَ الولدانِ واقفَيْن، ثمّ اقترَبا أكثرَ فأكثرَ من الحُشودِ البَشريّة. كانَ ألفريدو يعرِفُ السُّوقَ، لهذا وضَّحَ لجوليان العَديدَ من الأمورِ، ونسِيا الوقتَ تماماً.



كانت تَقِفُ إلى جانبِ رَجُلٍ يعزفُ على الأُرغُنِ اليَدوِيِّ فتاةٌ شابّة. كانتْ تُغنّي عن حريقٍ كبيرٍ وتُشيرُ بالعصا التي تحملُها في يدِها إلى إحدى الصُّوَر. هل هذهِ هي صور ميلانو؟ اندسَّ بينَ الجُموعِ رجلٌ ما، فأُصيبَ جوليان بالذُّعر.



ـ أنت؟ أينَ زَميلُكَ الآخر؟

أشارَ جوليان إلى ألفريدو.

ـ هل أنتَ ممَّن سيقومونَ بتنظيفِ المداخن؟

ـ أجل أنا واحدٌ منهُم. قالَ ألفريدو وهو يَحني رأسَهُ، ثمّ أضاف: أنا قادمٌ من وادي ميسوكّو. وقد رشّحَني للعملِ رجلٌ من كومو. ومَوعدي هو اليوم.

- إذن، تعالَوْا معي أيُّها المُتشرِّدانِ، لقد فتَّشْتُ عنكُما في كلِّ مكان.

سارَ الولدانِ على امتِدادِ الخِيامِ، حيثُ كانَتْ تتجمَّعُ خُيولُ الفلاّحينَ وحَميرُهم. وقد تعثَّرا أثناءَ المَشي في إحدى الطُّرقِ الضَّيِّقَةِ المُوصلةِ إلى البحر. فوصلا إلى منزلٍ عالٍ وسُورٍ ضَخم. وعندَما انفتحَ البابُ، كانَ يلوِّحُ لهما رجلٌ عَبوسٌ يدعُوهُما إلى الدُّخول دخَلا البوّابةَ ووقفا في ساحةِ مَنزلٍ مُتداعٍ، ينفتحُ على البحر. أجبرَهُم ذلكَ الرَّجُلُ العَبوسُ الوَجهِ على الدُّخولِ إلى الحَظيرةِ، وهُنا قالَ ألفريدو وهو يتقدَّمُ خُطواتٍ إلى الأمام:

- أنا جائع.

- أنا لستُ مسؤولاً عن إطعامِكم. ردَّ الرَّجلُ العَبوسُ ضاحِكاً. ثمَّ أضاف: لكنّني مسؤول عن ترحيلِكم. ثمَّ فتحَ بابَ الحظيرةِ ودفَعَهُما إلى الداخل.

سقطَ جوليان فوقَ ساقَيْ أحدِ الأولادِ في الحَظيرةِ، فصاحَ ذلك الولدُ من الألم. فتساءل جوليان:

- هل ثمَّةَ أحدٌ هُنا؟

- أحد؟ إنّ هُنا ما لا يقلُّ عن أربعةٍ وعِشرينَ شخصاً!

كانَ ثمَّةَ ضَوءٌ خفيفٌ يأتي من جِهةِ البحرِ، فاستطاعَ جوليان أن يتبيَّنَ أنّ الحَظيرة مملوءةٌ بالفِتيانِ الّذينَ كانوا يتوزَّعونَ في أرجائِها.

- استَلقِ وإيّاكَ أن تُزعِجَنا. فنحنُ مُتعَبون، جرّاءَ مشينا طيلةَ النهار. صاحَ الصَّوتُ للمرّةِ الثانية.

- نحنُ كذلكَ مُتعبون.

- هذا حَسنٌ، لأنكم ستنامونَ حالاً. قالَ ذلكَ وقد دفعَ شيئاً من القشِّ نحوَهُما واستدار إلى الجِهةِ المقابلة.

- تُصبِحُ على خَيرٍ يا جوليان. قالَ ألفريدو الّذي استلقى إلى جانبه. سادَ الهُدوءُ تماماً ولم يعُدْ يُسمَعُ سوى صوتِ شَخيرِ النائمينَ، وصوتِ أمواجِ البَحرِ الناعمةِ، الرَّتيبة.





استَيقظَ جوليان سريعاً على صوتِ رجالٍ في الخارجِ، يتحدّثونَ بأصواتٍ غاضبةٍ ومرتفعة. كانوا يحكونَ عن ولدَينِ من الذينَ كانوا يعملونَ في ميلانو في تنظيفِ المداخنِ، وكيفَ تجمَّدا وماتا من شدَّةِ البردِ، مثلما كانوا يتحدَّثونَ عن السُلطاتِ الحكوميّةِ وعنِ المُراقبةِ والنِّظام.

فقالَ أحدُهم مُتذَمِّراً: ـ« إنَّ على الجميعِ أن يكونوا سُعداءَ، لأنَّ هذا العملَ يدُرُّ دخلاً على الفقراء». فردَّ الثاني غاضباً: ـ «لقد كنتُ أحرِصُ دائماً على أن أدفعَ المالَ لعائلاتِ هؤلاءِ الأطفالِ، على نحوٍ قانونيٍّ تماماً».

وقالَ ثالث: ـ «ليسَ في هذا العملِ ما يستَوجِبُ المَنْع. فكلُّ هؤلاءِ الأطفالِ يَجيئونَ إلى ميلانو على نحوٍ قانوني».

فجأةً، انفتحَ بابُ الحظيرةِ وجاءَ الصَّوتُ آمراً: ـ «هيّا، انهَضوا، فسنُسافِر! وكلُّ من يتأخَّرْ، سيُطرَد. تقدّموا نحوَ الماء!».

تمتمَ أحدُ الفِتيانِ النَّحيفين: ـ «أنا خائفٌ، لن أذهبَ إلى الماء».

وردَّ آخر: ـ «وأنا كذلكَ لم يسبِقْ لي أن نزَلْتُ في الماء..».

صرخَ الرَّجلُ ذو النَّدبة: ـ «اخرَسوا! وأمسكَ بأحدِ الأولادِ وألقى بهِ في القارب».

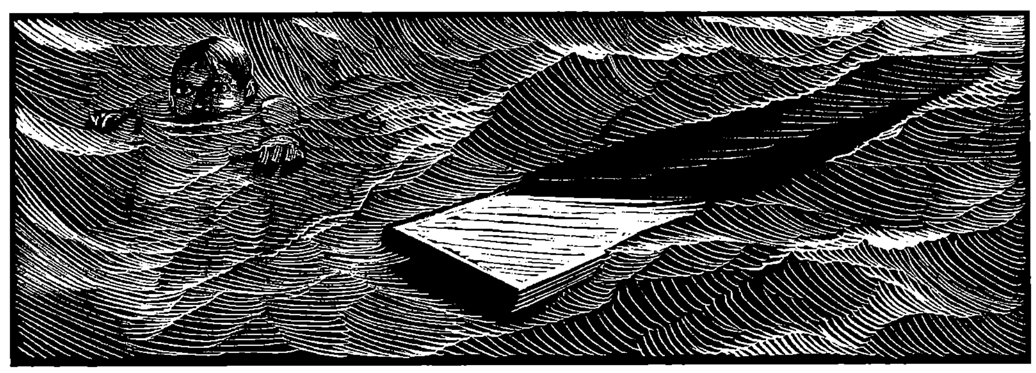
ثم سألَ الملاّح: ـ «هل عَددْتَهم؟».

ـ نعم. نحنُ واحدٌ وعشرون.

ـ إذَن لم يتغيَّبْ أحدٌ، وسنغدو اثنينِ وعِشرين.

فقالَ الملاّح: ـ «هذا عددٌ كبيرٌ قياساً إلى هذا المركِبِ الصغير».

طلبَ الرَّجُلُ ذو النَّدبةِ من ألفريدو وفتىً آخرَ أن يتولّوا عمليةَ التجذيفِ، وقال: ـ «حسناً، سأتولى عمليَّةَ القيادة».





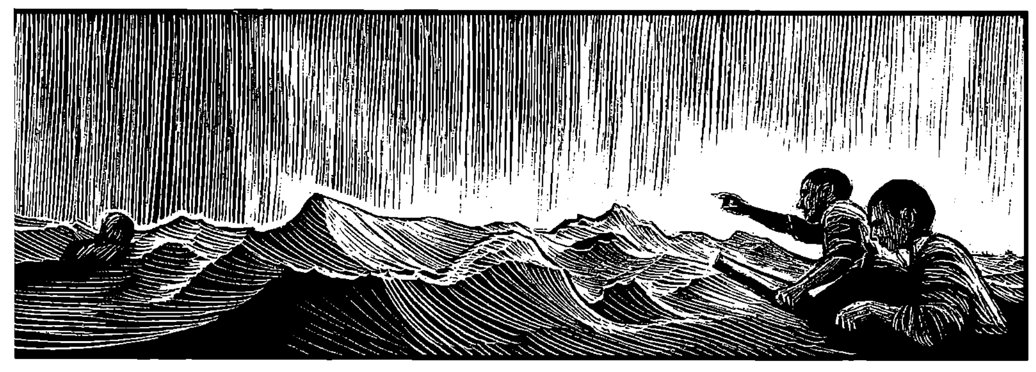


غرقَ المركبُ، وعندما استطاعَ جوليان أن يخرُجَ من أعماقِ البَحرِ، شاهدَ الأيدي والأذرُعَ تتخبَّطُ، وسمعَ صَيحاتِ النَّجدةِ الّتي كانت تذهبُ أدراجَ الرياحِ في ثنايا الأمواجِ الّتي كانت تعلو صاخِبة. اختفى القاربُ وغرقَ، ورأى جوليان لَوحاً خشبيًّا طافياً، فتشبَّثَ به. استطاعَ جوليان عندَها أن يُشاهدَ ما يدورُ حَولَهُ، فرأى ألفريدو بعيداً، فصاحَ بهِ يُناديه. بدأ الصَّبيّانِ يتلمّسانِ الكَيفيَّةَ الّتي يتوجَّبُ عليهما أن يسلُكاها للنّجاة. كانا مرهقَيْنِ ولا يستطيعانِ الكلام. ثمّ جاءَتْ ريحٌ فأبعدتِ الضَّباب.

- هُناك! قالَ جوليان وهو يلهَث.

- الشاطئ. كلاّ، إنّه أقربُ بكثير. أمسِكْ باللَّوحِ وسأدفعُكَ إلى هُناك!

- أنظُر. إنَّ ثمةَ أحداً يسبحُ هُناك. إنَّهُ أحدُ الرِّجال.







كانَ الرَّجلُ يستلقي على الشاطئِ كالميِّت. فتحَ الرَّجلُ عينيهِ وقالَ غاضباً:

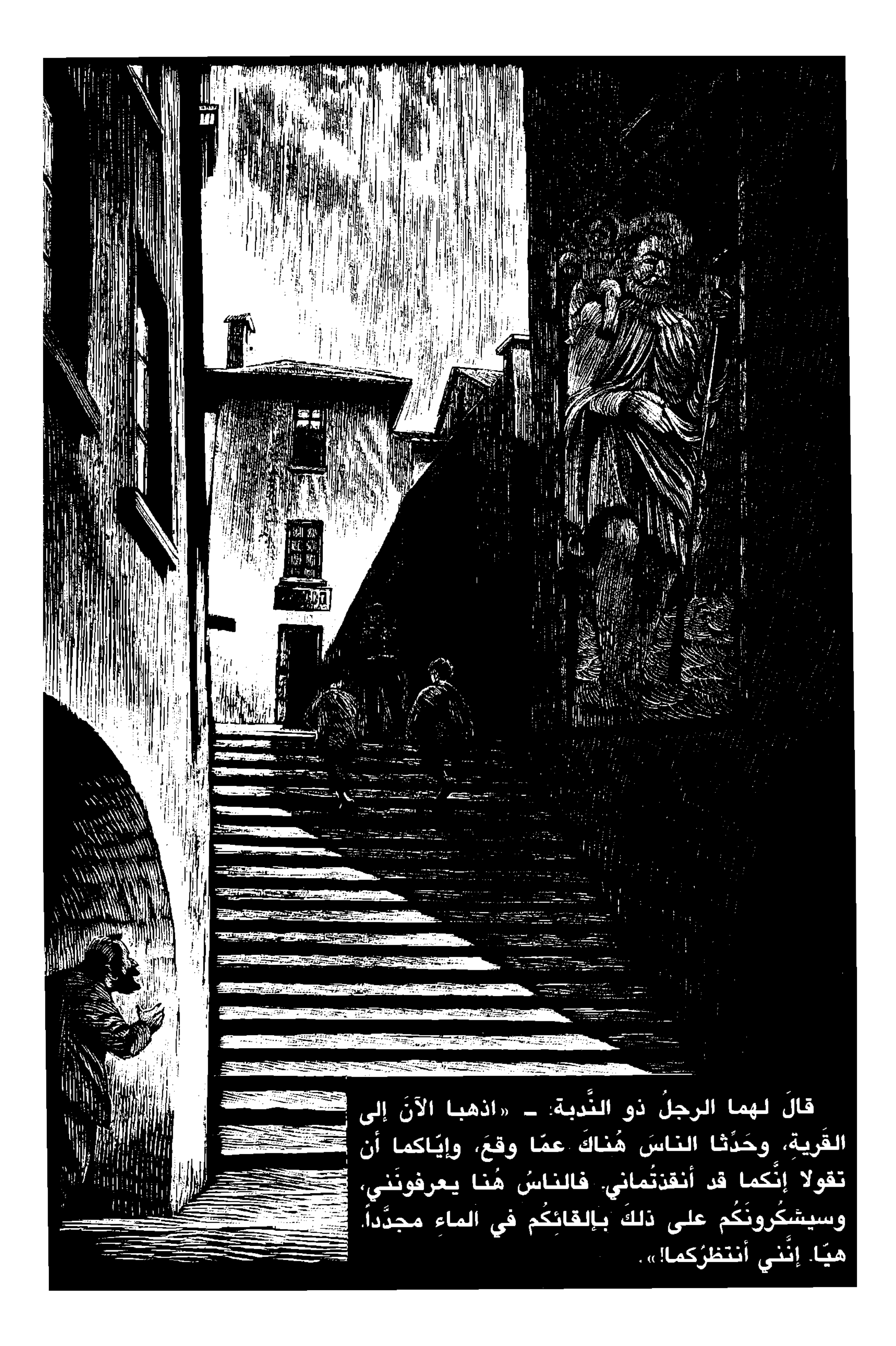
ـ أنتما! لماذا قُمتُما بإنقاذي؟ أتعلمانِ ماذا أفعلُ لو كنتُ مكانَكُما؟ كنتُ تركتُ هذا الرَّجلَ الذي يُدعى أنطونيو لوئيني حتى يغرقَ، لتعودا بعدها إلى المنزل.

ـ هذا ما نستطيعُ أن نفعلَهُ الآن. ردَّ جوليان.

ـ لا. فاتَ الوقت. الآنَ أعرفُ أنكُما ما تزالانِ حَيَّيْنِ، وقد دفعتُ مالاً بدلاً عنكما. وسأجِد كُلاً منكُما بينَ أهلهِ وفي منزله.

ـ ليسَ لديَّ عائلةٌ ولا منزل، قال ألفريدو.

فنظرَ إليهِ جوليان طويلاً، فاصفرَّ وجهُ ألفريدو فجأةً.



قالَ لهما الرجلُ ذو النَّدبة: ـ «اذهبا الآنَ إلى القَريةِ، وحَدِّثا الناسَ هُناكَ عمّا وقعَ، وإيّاكما أن تقولا إنَّكما قد أنقذتُماني. فالناسُ هُنا يعرفونَني، وسيشكُرونَكُم على ذلكَ بإلقائِكُم في الماءِ مجدَّداً. هيّا. إنَّني أنتظرُكما!».

كانا في منطقةٍ تُدعى كانّوبيو. فقد أخذَتِ العاصفةُ قارِبَهم بعيداً نحوَ الجنوب. كانَ مُراقِبُ الجمارِكِ أوَّلَ شخصٍ التقوا به. نظرَ الرَّجلُ إلى ملابِسِهِم المُبلَّلةِ وسألَهم:

ـ ماذا جرى لكم؟

حكى له جوليان عمّا وقَعَ لهم. فأدركَ مُراقِبُ الجمارِكِ طبيعةَ الأمرِ، وتساءَلَ:

ـ هل كانَ أنطونيو معكُما؟ وهل تمكَّنَ الشَّيطانُ من إنقاذِه؟

ردَّ ألفريدو:

ـ أظنُّ أنَّهُ لم ينجُ سِوى نحنُ الاثنَيْنِ، أما البقيَّةُ فقد لاقَتْ حتفَها غَرقاً. ركضَ مُراقِبُ الجَمارِكِ نحوَ الكنيسةِ، فبدأَتْ أجراسُها تُقرَعُ، وبدأَ الناسُ يغادرونَ منازِلَهُم ويتجمَّعون. طلبَ مُراقِبُ الجمارِكِ من بعضِ النّاسِ أن يذهبوا إلى البحرِ، فركَضوا إلى هُناك. أما الصَّبيّانِ فقد وقفا بعيداً، دون أن يلفتا النظر. وعندما مشيا وخلَّفا القَريةَ وراءَهُما، شعرا بالارتياح.

فجأةً وجدا الرَّجُلَ ذا النَّدبةِ يَقِفُ أمامَهُما، فقد كانَ ينتظِرُ في أحدِ حُقولِ الذُّرة.

ـ لقدِ استغرقَ الأمرُ وقتاً طويلاً، لكنَّكم قُمتُم بالمطلوب خَيرَ قيام. ثمَّ أخذَ يمشي دونَ أن يلتفِتَ إليهما.

ـ هل عرفتُم إذا ما تمَّ العُثورُ على أحدٍ من الناجين؟

هزَّ الصَّبِيّانِ رأسَيهما ولم يُجيبا.

ـ لكنَّ العُثورَ على أحياءٍ غَيرُ ممكنٍ، لأنَّ القارِبَ غرقَ قبلَ ساعة.

ثمَّ التفتَ إليهما وقال:

ـ هيّا، استعجِلا، فإنَّ علينا الوُصولَ إلى پالانزا سريعاً.

وعندما ردَّ الصَّبِيّانِ بأنَّهما جائعانِ، استهجنَ الرَّجلُ ذلكَ، وأخبرَهُما بأنّهُ سيشتري في القريةِ الّتي سيصِلانِ إليها خُبزاً ونقانق. وبعد الوُصولِ إلى القريةِ اشترى الرَّجلُ الخُبزَ والنقانِقَ، وأعطاهُما شيئاً من الخُبزِ وأكلَ النَّقانِقَ وحدَه. ثمّ واصلا السَّير. مرَّتْ عربةٌ يجرُّها ثَور. كانَ الفلاّحونَ الذين يركبونَ العَربةَ في طريقِهم إلى حُقولهم. وقد لوَّحوا للثلاثة. لكنَّ الرَّجُلَ لم يردَّ التحيَّةَ وابتعدَ عن الطَّريقِ، لأنَّهُ لم يكُنْ يرغبُ في أن يراهُ أحدٌ أو أن يتلقّى التَّحيةَ من أحد.





ـ لا أستطيعُ أن أُواصِلَ السَّير. صاحَ جوليان.

ـ وأنا الآخرُ لا أستطيع. أضافَ ألفريدو شاكياً.

أخذَ الرَّجلُ يشتُمُ واتَّجهَ نحوَ البَحرِ، وتسلَّلَ نحوَ إحدى الشُّجَيرات. وما كادَ يجلِسُ تحتَ الشَّجرةِ حتّى نامَ وعلا شخيرُه. كما نامَ ألفريدو سريعاً. أمّا جوليان الّذي لم يسبِقْ لهُ أن نامَ في العَراءِ، فلم يستطِعِ النَّوم. فقد كانَ نَقيقُ الضَّفادعِ، وصَريرُ صَراصيرِ اللَّيلِ غريباً على مسامِعِهِ، بعدَها صارَ جوليان يُصغي إلى نَعيقِ إحدى البُومات. فعادَتْ بهِ الذّاكِرَةُ إلى سوغنونو التي غادَرها قبلَ يَومَينِ، وصارَ يتساءَل:

تُرى هل جاءَتْ أنيتا ورأتِ الطُّيورَ والحيواناتِ؟ هل زارَ الطَّبيبُ والدتَهُ وعالَجها؟ لكنَّ جوليان استفاقَ من تلكَ التأمُّلاتِ على تذكُّرِ الصُّراخِ ووُجوهِ الغرقى الشَّبابِ، وأصواتِ الرّيحِ، والأمواجِ العاليةِ السَّوداء..

وعندما سارا صبيحَةَ اليوم التالي في شوارع سترسّا الخلفيّةِ، كانَت أجراسُ الكنائسِ ما تزالُ تُقرَع. كانَ الناسُ يمرُّونَ بهم صامتينَ وهُم في طريقِهم إلى الكنيسة. تركَ الرَّجلُ الصَّبيَّينِ وحدَهُما للحظاتٍ، ثمّ أجبرَهُما على السَّيرِ معهُ قُدُماً. مرَّ رجلٌ يقودُ حِصاناً يجرُّ عربةً، فطلبَ من الصَّبيَّينِ أن يركبا. سألهُ الرَّجلُ إن كانَ بإمكانهِ هوَ الآخرُ أن يركَب. فقالَ لهُ الحُوذيّ:

ـ اركَبْ هُناك. وأشارَ بالسَّوطِ إلى المكانِ الخَلفيِّ في العَربة.

بعد أن سارتِ العربةُ قليلاً سألَ الحُوذيّ:

ـ من أينَ أنتُم قادمون؟

ـ من لوكارنو. أجابَ الرَّجل.

ـ هل جِئتُم سَيراً على الأقدام؟ سألَ الحُوذيُّ، فأحنى الرَّجلُ رأسَهُ مُوافِقاً.

ـ أنتم محظوظون. فقد غرقَ يومَ أمسِ عشرونَ فتىً ورَجُلانِ مع القارِبِ الّذي كانَ يقِلُّهم. ولم ينجُ سوى اثنَينِ من مجموعِ رُكّابِ القارب. وقد شرعَ النّاسُ في البحثِ عنهم. وأظنُّكُم من الناجينَ، بل أجزِمُ أنكم منَ النّاجين.

ـ لقد سمعتُ عن ذلكَ في سترسّا. قالَ الرجلُ ذو النَّدبة.

ـ لقد أُقيمَ القُدّاسُ عن أرواحِهم في الكنيسة. ردَّ الحُوذيّ.



ثمّ أضافَ: ـ «إنَّ غرَقَ هؤلاءِ الرِّجالِ لا يُحزِنُني، فهُم يُتاجِرونَ بالبشَرِ ويستحِقُّونَ هذا المصير. أما الأطفال..».

صمتَ الرَّجلُ وكأنَّهُ أصابَهُ الخرَس. وبعدَ مُدَّةٍ طلبَ أن ينزِلَ، لأنَّهُ لاحظَ أنَّ الحوذِيَّ يمشي في اتجاهٍ مُغايرٍ لمقصَدِه.

اللَّيلُ قصيرٌ في الغابة. فالبَعوضُ يُهاجِمُ النائمَ، ويُجبِرُهُ على الرَّحيلِ في اللَّيلِ المُظلِم. كانتِ الحُقولُ تتَّسِعُ والأنهارُ تصبحُ أعرَض. وعندما كانَ الثلاثةُ يقفِزونَ فوقَ أحدِ المعابرِ، كانَ الرَّجلُ لا يدَعُ الصَّبيّينِ يغيبانِ عن عَينَيه. أما عندما كانَ يشتري الخُبزَ والنقانِقَ، فكانَ لا يُعطيهُما سوى الخُبز.



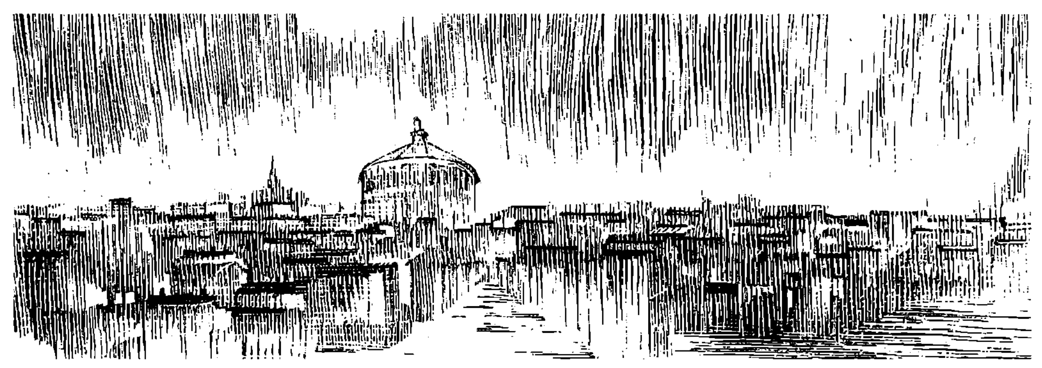
أُصيبَ جوليان وألفريدو بالإرهاقِ الشَّديد. فلم يعودا قادرَينِ على الوُقوفِ للتأمُّل والنَّظرِ، وكانا يرغَبانِ في الاستِلقاء.

ـ هل ما تزالُ ميلانو بعيدة؟

ـ لو أنّكما مِثلي كبيرانِ، لاستطعتُم أن تَرَوها.

وبعد أن سارا بضعَ خُطواتٍ صَعِدَ الصبيّانِ على حافةِ الطَّريقِ، فلم يرَيا سوى الضَّبابِ الشاحِب. فالتفتَ الرجلُ نحوَهُما وسأل: ـ« أما تزالانِ غيرَ قادرَينِ على الرُّؤية».

فهزَّ الصبيّانِ رأسَيهما بالإيجاب.



ـ هذا هو البُرجُ، وهذهِ هي كنيسةُ سانتا ماريّا. وهُناكَ حيثُ يلوحُ الكثيرُ من رُؤوسِ الأبراجِ تُوجدُ الكاتدرائيّة.

لم يعرفِ الصَّبيّانِ عن أيِّ الرؤُوسِ يتحدَّثُ الرَّجلُ، فاكتفَيا بهزِّ رأسَيهما. كانتِ البُيوتُ تتزاحمُ وتُحيطُ بالشوارعِ، وكانَ الناسُ ينتَشِرونَ في كُلِّ مكان. وكانت بعضُ البناياتِ تمتدُّ على جانِبَي الشارع.

سمعَ جوليان ذاتَ مَرَّةٍ صَوتَ بعضِ الأطفالِ، ونظرَ في اتِّجاهِ الصَّوت، فظَنَّ أن رجالاً ونساءً يلعبون. لكنَّهُ تبيَّنَ أنّهُم أطفالٌ، يرتدونَ ملابسَ جميلةً وغاليةَ الثَّمن. لم يسبِقْ لهُ أن رأى أطفالاً يرتدونَ مثلَ هذهِ الملابسِ الغاليةِ، الّتي يرتديها الكِبارُ في العادة.

صاحَ جوليان: ـ «تأمَّلْ ما أعلى هذا المنزل! إنَّهُ يبلُغُ علوَّ خمسةِ منازلَ بعضُها فوقَ بعضٍ من منازلِ سوغنونو».

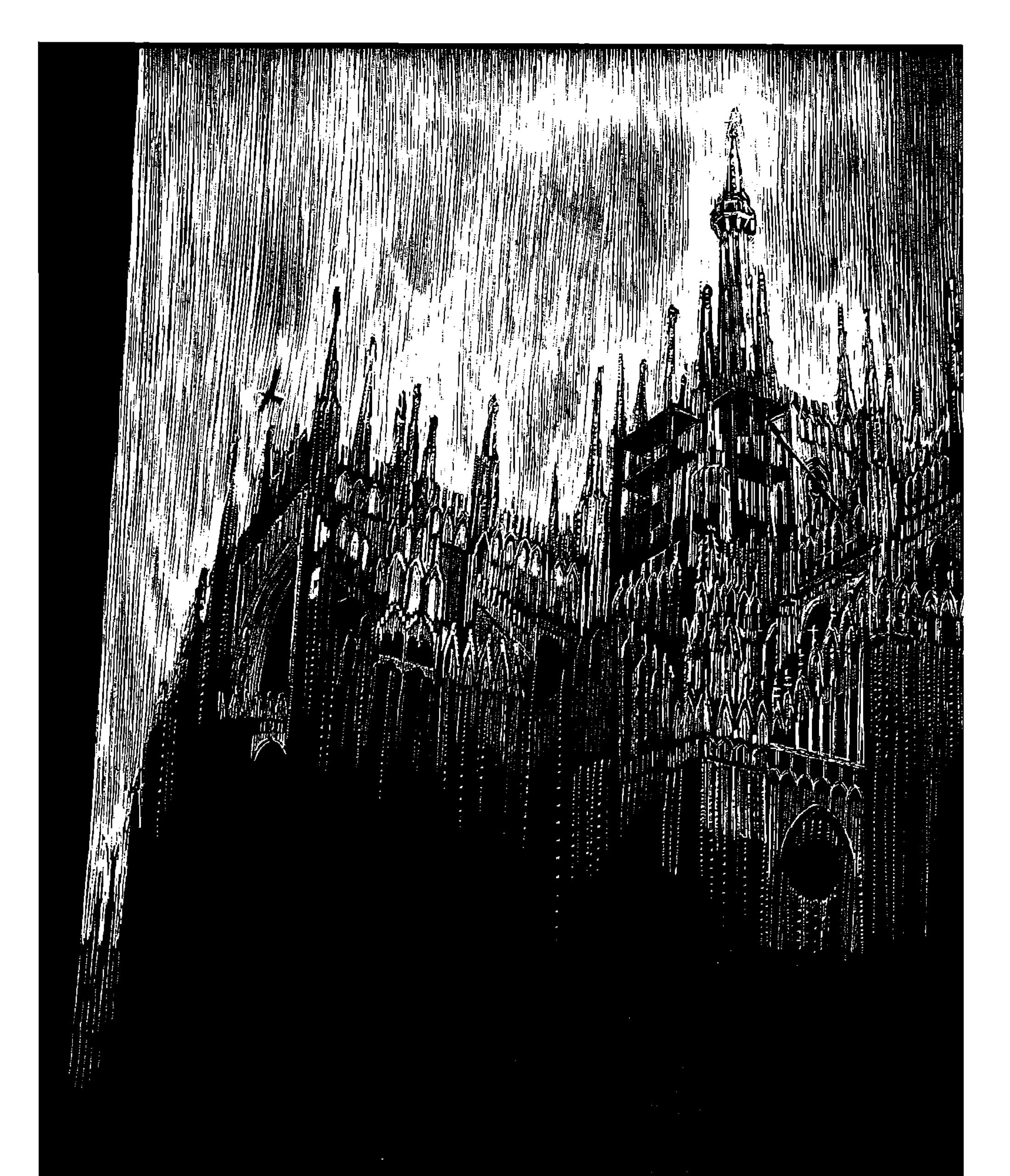
أخذَ جوليان يُحصي عددَ النَّوافذِ في المبنى: اثنتا عشرةَ، ثلاثَ عشرةَ، أربعَ عشرةَ.. عندَها صاحَ الرَّجلُ ذو النَدبةِ، وهو يُبعِدُ جوليان عن الشّارعِ، لأَنَّ عربةً كبيرةً كانتْ تمرُّ إلى جانبِهِ، وقال:

ـ اللَّعنة! إنَّني لم آتِ بكما إلى ميلانو، لكي تموتا تحتَ إحدى العَربات. صارَ الصَّبيّانِ أكثرَ حَذراً، لكنَّهما ظلاَّ على الرُّغم من تحذيراتِ الرَّجلِ وشتائِمهِ واقفَين. كانتْ كلُّ خُطوةٍ تحمِلُ جديداً لهما. فقد رأيا مقاعِدَ موزَّعةً في أرجاءِ المدينةِ، يجلِسُ الناسُ عليها، وشاهدا الأطفالَ يخرُجونَ من الكنيسةِ في صُفوفٍ مُنتظِمة.

ـ هيّا تعالَوْا، هيّا تعالَوْا. وهل سأقومُ بصناعةِ ساقَينِ لكُما في نِصفِ الساعةِ الأخير؟

تسمَّرَ الصبيّانِ أمامَ أحدِ المقاهي. كانتْ طاولاتُ المقهى تَنتشِرُ وصولاً إلى الشارع. وكانَ يجلِسُ على كُلِّ طاولةٍ رجالٌ ونساءٌ، وكانَتْ ملابسُ النساءِ مُلوَّنةً تُشبِهُ البَّبغاء. وعلى مَقرُبةٍ كانت تمرُّ مجموعةٌ من الجُنودِ النِّمساويينَ دارَ قائدُها وهو على فَرسِهِ حولَ إحدى زوايا المكان. وقبلَ أن يستَفيقَ جوليان وألفريدو من هذهِ الصَّدمةِ، وجدا نفسَيهما أمامَ ساحةِ الكاتدرائيّة.



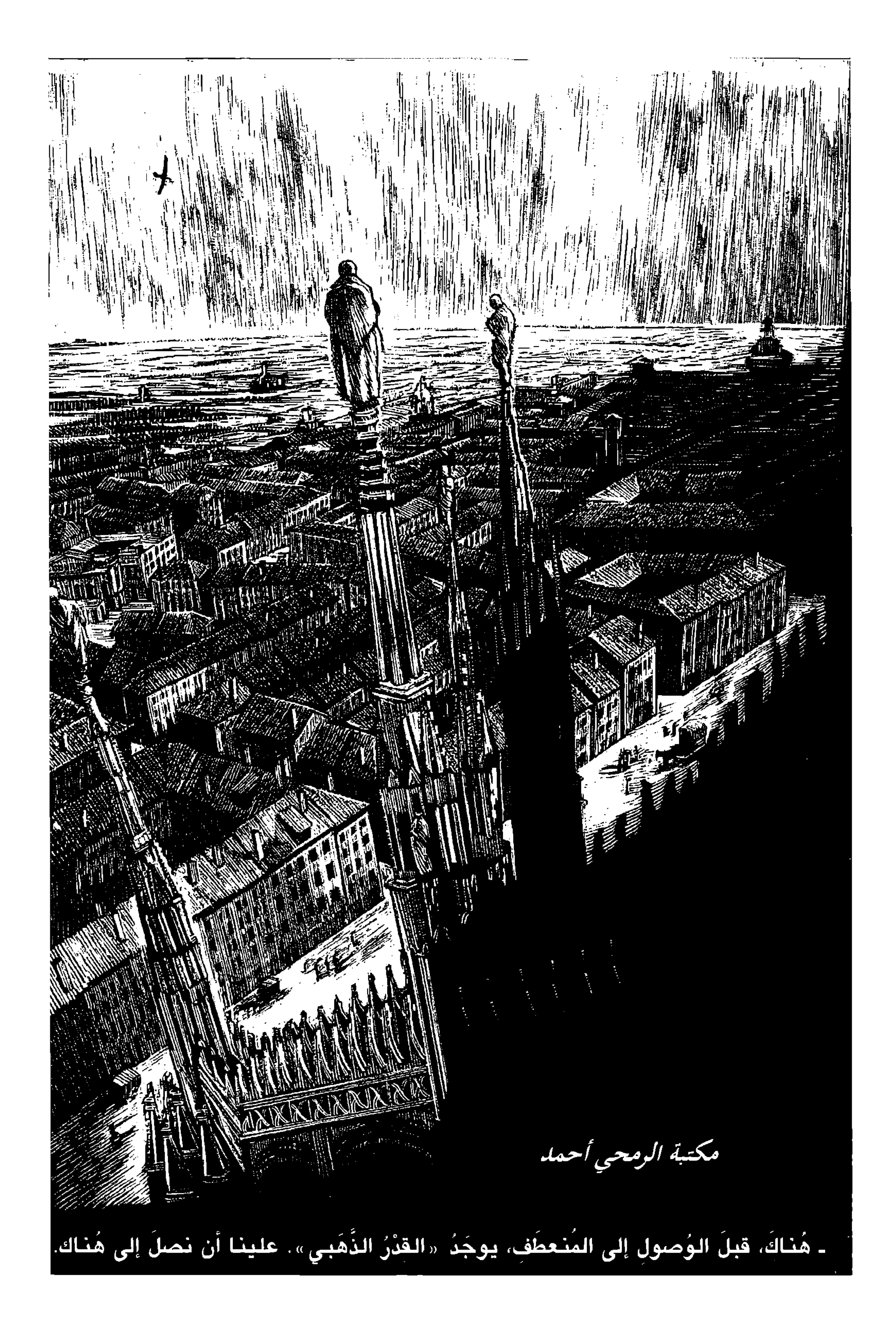


ـ إنَّها شبيهةٌ بقطعةٍ ضخمةٍ من الحَلوى.

ـ كلاّ. ردَّ جوليان.

ـ بل هيَ شبيهةٌ بجبَلٍ جليديّ. تمتَم الرَّجلُ، ثمَّ أضاف: أما إذا لم تسيروا معي بسُرعَةٍ، فسيبدأ الضَّرب.

ثم قادَهُما بعيداً عن ساحةِ الكاتدرائيَّةِ، وصولاً إلى شارعٍ عريض.



ـ هُناكَ، قبلَ الوُصولِ إلى المُنعطَفِ، يوجَدُ «القِدْرُ الذَّهَبي». علينا أن نصلَ إلى هُناك.



وعندما قامَ الرَّجلُ بدفعِ الصَّبيّينِ إلى صالةِ المطعمِ، توقَّفَ الحديثُ، وبدأ الرجالُ يحدِّقونَ بهما، ثمّ قالَ أحدُ الرِّجالِ الجالسينَ بصَوتٍ هادئ:

- هل أنتَ هو؟ أم أنتَ شخصٌ آخر؟ لقد سمعنا عن خَبرِ وفاتِكَ غرَقاً، يا أنطونيو، قبلَ قليل.

شرعَ الجَميعُ بعدَها يتحدَّثونَ معاً.

- لقد كتبَتِ الصُّحُفُ عنِ المأساةِ ولم يتحدَّثْ أحدٌ عن إنقاذِك.

- هل أنقذَكَ هذانِ الصَّبيّان؟

- وهل كانت مكافأةُ كُلٍّ منهما إحضارَهُ إلى ميلانو؟

- إنَّكَ لشَيطانٌ جاحِد.

وقدِ استمعَ الصبيّانِ طويلاً إلى النِّقاشِ الحادِّ، من فَوقِ الفُتحةِ الّتي تقودُ إلى القَبو.



كانَ على جوليان وألفريدو أن يَفرُكا وجهَيهِما جَيِّداً في صباحِ اليومِ التّالي، ليظهَرا معافَيينْ ومَوفورَي النَّشاطِ والصِّحَّة.

وما إن وصلَ رُؤساءُ العُمّالِ حتّى فُتِحَ بابُ المُساومة. سأَلَ أحدُ مُنظِّفي المداخِنِ، وكانَ شاحبَ الوَجه: ـ «هل هذانِ هما كلُّ الصِّبيان؟». ـ «أجل. ردَّ صاحبُ المطعمِ، ثمَّ أضافَ: لقد غرقَ الصِّبيانُ الآخرون».

ـ «ومتى سيأتي أطفالٌ آخرون؟». ـ «مهلاً! يتوجَّبُ علينا أن نكونَ حذِرينَ، وأن نصرِفَ أنظارَ السُّلُطاتِ الحكوميّةِ بعيداً عنّا، وأن ندعَ الصُّحفَ تهدأُ وتنسى المأساة..».

اندفعَ أحدُ منظِّفي المداخنِ من بينِ الحَشْدِ، وتحسَّسَ ذراعَ ألفريدو وسألَ عن ثمنِهِ، وسألَ ألفريدو: ـ «هل أنتَ قويّ».

ردَّ صاحبُ المطعم: ـ «السِّعرُ ثمانون ليرة».

فردَّ رئيسُ العُمّالِ الأولُ بأنَّهُ على استعدادٍ لدفعِ المبلغ.

صاحَ واحدٌ: ـ «اثنتانِ وثمانونَ ليرة».

ـ «اثنتانِ وثمانون؟ هذا مبلغٌ يكفي لشراءِ ماعز». ـ «إذنْ اشترِ لكَ واحدةً، ودَعْها تنظِّفُ مدخنَتك».

وصلَ عددٌ آخرُ من رؤساءِ العمّال. كانَ لواحدٍ منهُم لِحيةٌ صغيرةٌ مدبَّبةٌ، أما الثاني فكانَ مدوَّراً كالكُرةِ، ولهُ وجهٌ واسعٌ مستَدير. حيّاهُم صاحبُ المطعمِ ورحّبَ بِهم وصافحَهم. قالَ ذو اللحيةِ المدبَّبة: ـ «حسناً، يبدو أنَّكَ قد أنقذْتَ أحسنَ الصِّبيان. كم سعرُ الواحدِ منهم؟».

كانتِ الجُملُ قصيرةً، والكلماتُ قليلةً، ورئيسا العُمّالِ على استعدادٍ للدفع.

عبثَ الرَّجلُ السّمينُ بكيسٍ كانَ يحملهُ في يدهِ، ووضعَ ما فيه من عُملةٍ معدِنيّةٍ على الطاولةِ، أما ذو اللّحيةِ فكانَ يُريدُ أن يُعطيَ صاحبَ المطعمِ أربعَ قطعٍ ورقيّةٍ، فتدخَّلَ الرَّجلُ ذو الوجهِ الشاحبِ، وأعلنَ أنَّهُ كانَ أوّلَ من أعلنَ عن رغبتِهِ في الشّراء.

ـ لكنّكَ لم تدفَعْ غيرَ ثمانينَ ليرة.. هُدوء، هُدوء، وإلاّ!



ـ وإلاّ ماذا؟ صاحَ ذو الوَجهِ الشّاحبِ وهو يستلُّ سكّينَه.

ـ دَعْ عنكَ ذلكَ يا جيوسيپّي. تستطيعونَ أن تطعَنوا بعضَكم بعضاً حتّى الموتِ في الخارج. قالَ صاحبُ المطعمِ ذلكَ بصَوتٍ هادِر.

استدارَ صاحِبُ الوجهِ الشّاحبِ بغَضَبٍ، وأغمدَ سكّينَهُ، وأعطى لصاحبِ المطعمِ اثنتَينِ وثمانينَ ليرة. ثمّ سحبَ ألفريدوَ وراءَهُ إلى الخارج.

ـ دعهُما يمضِيان. وسأحدِّثُكَ بالأمرِ لاحقاً.

شرِبَ الرجُلُ السَّمينُ الكأسَ الّتي كانَ صاحبُ المطعم قد وضَعَها أمامَهُ، ثمّ ربّتَ بودٍّ على كَتِفِ الصبيِّ الآخرِ ومضَيا معاً.

خاطبَ المعلِّمُ صبيَّهُ جوليان بقَولِه:

ـ تحرَّك. هيّا تحرَّك، فلن تهرُبَ المدينةُ منك.. وما لا تستطيعُ رؤيتَهُ اليَومَ، يمكِنُكَ أن تراهُ غداً. ستسيرُ إلى الأمام نحوَ إحدى السّاحاتِ وستدخلُ إحدى الكنائس.

لم يكُن جوليان يتخيَّلُ أنّ ثمّةَ مبانٍ بهذهِ الضَّخامة، يكادُ المبنى الواحدُ يستوعِبُ قريتَهُ بأكملِها. وقفَ المعلِّمُ روسّي خلفَ إحدى البوّاباتِ، وفتحَ البابَ ودخلا إلى فِناءٍ مفتوح.

ـ لقد شارَفنا على الوُصول. احفَظِ الطَّريقَ جيّداً، لأنَّ عليكَ أن تجدَ الطَّريقَ وحدكَ في المستقبل. ثمّ انعطَفا نحوَ أحدِ الشوارع. هُناكَ كانت محلاتٌ يتمُّ فيها الشَّحذُ والقطعُ والنَّشرُ والإصلاحُ والخِياطة. وكانتْ تفوحُ من المكانِ روائحُ القارِ والغِراءِ والفَحمِ والأصباغ.

سأَلَ أحدُ صانعي الأحذِية:

ـ هل هذا هو صَبِيُّكَ الجديد؟

فاكتفى المعلِّمُ بأَنْ حنى رأسَه.

وقالَ أحدُ البحّارين:

ـ إنَّهُ شاحِبُ اللَّونِ، أصفرُ الوجهِ، فعليكَ أنْ تهتمَّ بتغذيَتِهِ وإلاّ سقطَ مَغشِيّاً عليه.

ضحكَ الرَّجلُ، فحيّاهُ المعلِّمُ ولوَّحَ لهُ ومضى، ليدخُلَ البَوّابةَ الَّتي تُفضي إلى منزِله. فصاحَتْ إحدى النّساء:

ـ مسكينٌ أيُّها الولد! كيفَ يُمكنُ أن يُوافِقَ الأهلُ على إرسالِ طِفلٍ كهذا إلى المدينة؟





صعِدَ المعلِّمُ الدَّرجَ إلى الأعلى. كانتِ الأبوابُ كثيرةً، تنتَشِرُ حيثُما نظَرَ جوليان. بعدَ قليلٍ قالَ المعلِّم:

- لقد وصلنا إلى منزِلِنا.

ثم فَتحَ البابَ ودخلَ إلى الممرّ. رأى جوليان في نهايةِ المَمرِّ غُرفةً مائلةً، وأمامَها بابٌ مفتوحٌ يُفضي إلى المطبخ. كانَتْ رائحةُ البَصَلِ تنتشرُ في المنزل.

- هل وصَلْت؟ صَرَخَتْ إحدى النساء.

- نعم. ردَّ المعلِّم.

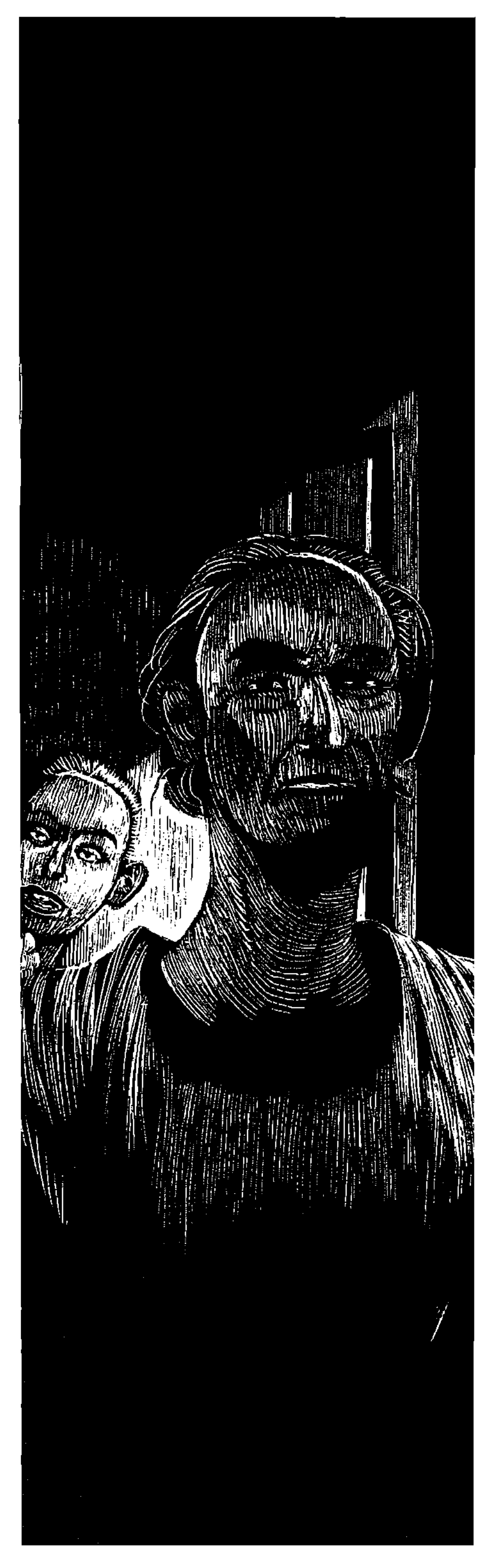
- وهل أحضرْتَ الصَّبِيَّ معك؟

- نعم. ردَّ المعلّمُ وهو يدخلُ إلى المطبخ.

ظلَّ جوليان واقِفاً في الممرِّ يتلفَّت.

- أينَ هو؟ تعالَ إلى هُنا أيُّها الصَّبيّ! قالتِ المرأة.

كانتِ المرأةُ شديدةَ الشَّبَهِ بصَوتِها. فسألت بصوتٍ عالٍ:
ـ «هل يصلحُ هذا الغُلامُ لشيء؟ وكم من المالِ دفعتَ فيه؟ قُل لي وإلاّ أحصَيتُ ما في مِحفظَتِكَ من المال!».
ثمّ مدَّتِ المرأةُ يدَها نحوَ المِحفظةِ، فقالَ لها المعلّم:
ـ «دعي مِحفَظتي!»
ـ ماذا تقصِدُ بدَعي مِحفَظتي؟ قُل لي كم دفعتَ فيهِ وإلاّ!
ـ دفعتُ فيهِ اثنتَينِ و..
ـ ما معنى اثنتَين؟ كم دفعتَ فيه تحديداً؟
أخذَ زَعيقُ المرأةِ يعلو، في حينِ التزمَ المعلّمُ الصَّمت.
وعندما قالت لهُ زوجتُهُ إنّ كثيراً من الآباءِ يرغبونَ في التخلُّصِ من أبنائِهم، ردَّ عليها المعلّمُ بقولِه:
ـ إنّكِ لا تُطيقينَ أن أتحدَّثَ مع أنسلمو..
ـ أنسلمو، ولدي، حبيبي. أيُّها الأبُ الشِّريرُ، والقاسي. صاحَتِ المرأة.
وهُنا انفتحَ بابُ إحدى الغُرَفِ وأطلَّ منهُ صَبيٌّ فقالَتْ له أُمُّه:
ـ إنَّ أباكَ يُريدُكَ أن تعملَ معهُ في المداخِن. فما قَولُك؟
ـ أنا لا أريدُ أن آخذَهُ للعملِ في المداخِن. ولم أقُلْ سوى أنّكِ.. حَسناً، لندَعْ هذا الكلام. أنا جائع.
ـ ما شاءَ اللّه! جائع؟ لماذا جِعتَ يا تُرى؟ من كَثرةِ الوُقوف؟!
ثم تناولَتِ المرأةُ صَحناً وسكبَتْ فيه ثلاثَ ملاعقَ من الحَساء.
وعندما نظرَ المعلِّمُ وقعَ بصرُهُ على جوليان الّذي كانَ ما يزالُ واقفاً في مكانه.
ـ ألن تسكُبي شَيئاً من الطَّعام للصَّبيّ؟
ـ لا! عليهِ أن يعملَ أوّلاً.. وربّما أسكُبُ لهُ الطَّعامَ في المساء.
لكنَّ المرأةَ أحضرَتْ صَحناً ووضعَتْ فيهِ شيئاً من الحَساء وقدَّمَتْهُ للصَّبي. ثمّ ملأَتْ صحناً آخرَ وحملَتهُ وسارتْ بهِ إلى إحدى الغُرفِ، حيثُ سمعَ جوليان حِواراً وِدّياً وحَنوناً وناعماً يدورُ بينَ الأمِّ وابنِها.



- أبي!
تركَ المعلِّم رُوسّي جوليان في الممرِّ ودخلَ إلى إحدى الغُرَف.
- إلى أينَ أنتَ ذاهبٌ يا أبي؟
سمعَ جوليان صوت فَتاةٍ تتحدَّث.
- نحنُ ذاهبانِ للعَمل.
- أنتما! هل لديكَ صبيٌّ يعملُ معك؟
- أجل!
- دَعهُ إذن يدخلُ إلى هُنا!
وقفَ جوليان بالبابِ فقالَ لهُ المعلّم:
- هذهِ ابنتُنا أنجليتَّا. إنّها تُعاني من المَرضِ بعضَ الشَّيء.
- نعم. همسَتِ الفتاةُ الصَّغيرة. فأنا عاجزةٌ عن الوُقوفِ منذُ سنتَينِ، وقد منعني الطَّبيبُ من الوُقوف. ما اسمُك؟
فكرَّرَ المعلمُ السُّؤالَ، وقالَ مخاطِباً الصبيّ:
- صحيح. ما اسمُك؟ فأنا لم أسألْكَ هذا السُّؤالَ إلى الآن.
- إسمي جوليان.
- أما تزالانِ ها هُنا؟ جاء صَوتُ المرأةِ يَصيحُ من المطبخ.
- نعم يا أُمّي.. قالتِ الفَتاةُ، فأنا التي أخَّرتُهُما، لأنَّني أُريدُ أن أرى الصبيَّ الجديد.
- ليسَ فيهِ ما يستحقُّ المُشاهدة. قالتِ الأمّ. ثمَّ صاحَت: اذهَبا بسُرعة. فإنَّ ابني يرغَبُ في النَّوم بعدَ أن تناوَلَ الطعام.
- إنَّهُ يُعجِبُني. ردَّتِ الفتاة.
- لكنَّهُ لا يُعجِبُني. قالَ أنسلمو، الَّذي دخلَ برِفقَةِ أُمِّه.
سحبَ المعلِّمُ جوليان وخرجا.

في فِناءِ المنزلِ كانَ ثمَّةَ مخزنٌ صَغير. أخرجَ المُعلِّمُ منهُ سُلَّماً وحَبلاً ومكنَسَةً وأدواتٍ أُخرى كثيرةً، أدخلَ بعضَها في كِيسِهِ، وعلَّقَ بعضَها الآخرَ على كَتِفِ جوليان وقالَ له:

ـ هذا ما ستقومُ بحَملِهِ دائماً.

كانَتْ درجةُ الحرارةِ عاليةً في الشَّوارعِ، بصَرفِ النَّظرِ عن مدى عُلوِّ الشمس. انعطفا بعدَ أن تجاوَزا الكنيسةَ، وسارا في شارعٍ عريض.

ـ هذا هو «ڤيا مانزوني». وهو شَبيهٌ بالرِّيفييرا.

كانَ المعلِّمُ يمشي ببُطءٍ ويتأمّلُ واجهاتِ الفُندُقِ الفَخم.





ـ مُنظِّف مداخِن! منظِّف مداخِن.

دُهِشَ جوليان من صَوتِ المعلِّمِ القَويِّ، الَّذي التفتَ نحوَهُ وصاحَ به:

ـ لماذا لا تُنادي معي؟ هل تَظنُّ أنَّ عليَّ وحدي أن أبُحَّ صَوتي؟

ـ لكنَّكَ لم تطلُبْ منّي ذلك.

ـ وهل من الضَّروريّ أن أقولَ لكَ كُلَّ شيء؟ كرِّرْ ما أفعلُه.

عندها بدأ جوليان يُنادي، وصارا يتناوبانِ على النِّداء.

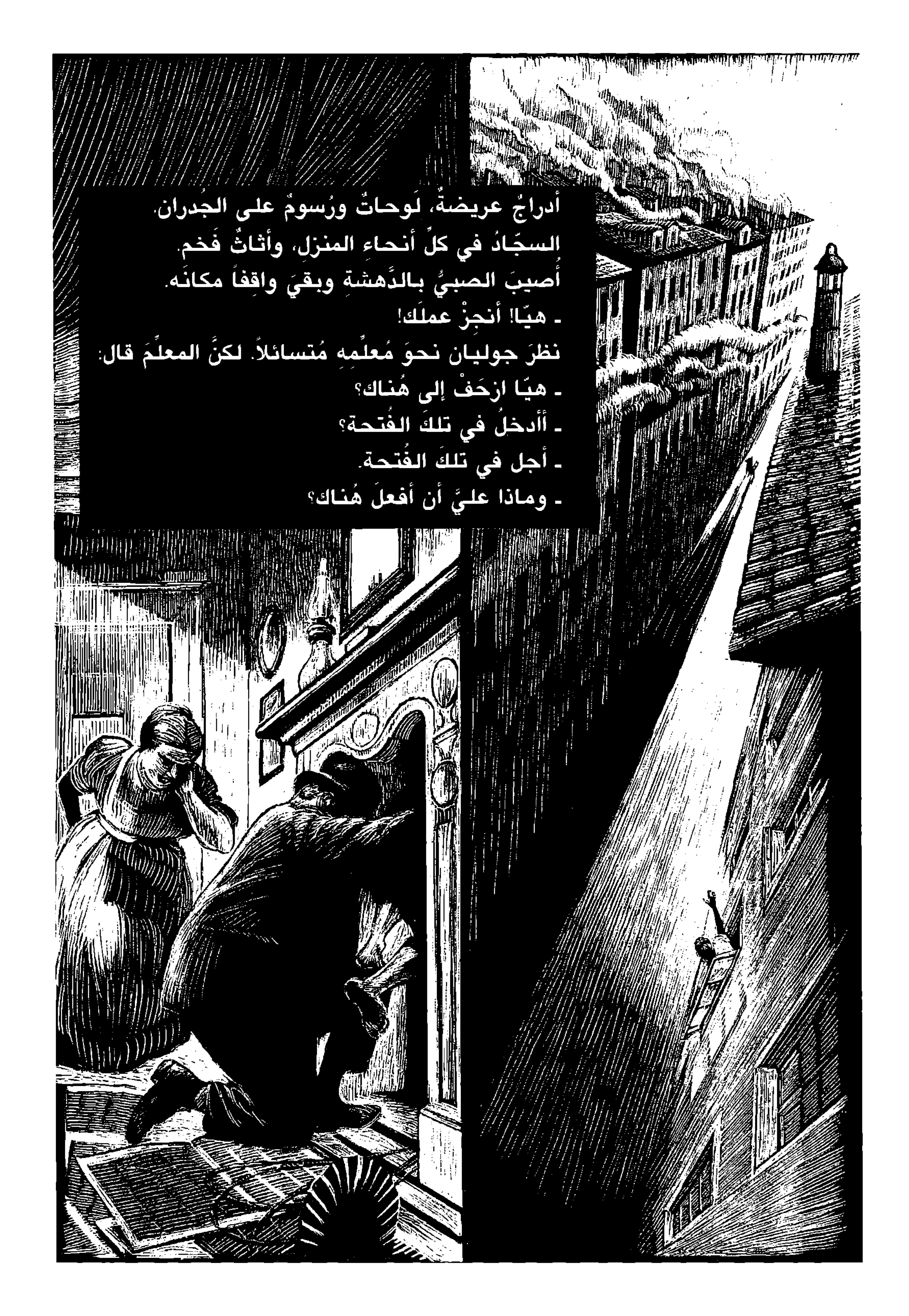
ـ هُناكَ من يُلَوِّحُ لنا. هيّا اصعَدْ سَريعاً.

ـ أين؟ سألَ جوليان.

ـ في الأعلى.

ـ كيفَ أستطيعُ الوصولَ إلى هُناك؟

ـ أيُّها الغَبيّ! من خِلالِ الباب.



أدراجٌ عريضةٌ، لَوحاتٌ ورُسومٌ على الجُدران.
السجّادُ في كلِّ أنحاءِ المنزِل، وأثاثٌ فَخم.
أُصيبَ الصبيُّ بالدَّهشةِ وبقِيَ واقِفاً مكانَه.
ـ هيّا! أنجِزْ عملَك!
نظرَ جوليان نحوَ مُعلِّمِه مُتسائلاً. لكنَّ المعلِّمَ قال:
ـ هيّا ازحَفْ إلى هُناك؟
ـ أأدخلُ في تلكَ الفُتحة؟
ـ أجل في تلكَ الفُتحة.
ـ وماذا عليَّ أن أفعلَ هُناك؟



حدِّقْ جَيِّداً هُنا وهُناك. ثمَّ مُدَّ ذِراعَكَ هذه! عندَها ستجدُ قِطعةً من الحديدِ، تحسَّسِ القِطعةَ وازحَفْ تدريجيّاً إلى الأعلى، حتّى تَصِلَ إلى الذُّروَة.

- وماذا أفعلُ هُناك؟

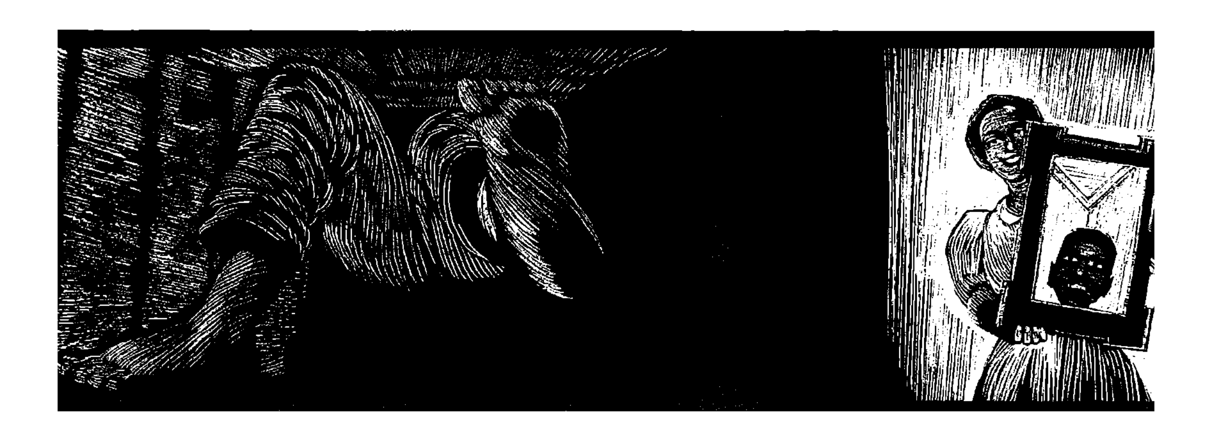
- إذا عرفتَ المكانَ الَّذي توجدُ فيه فُتحةُ المدخنَةِ، فحرِّكها يُمنةً ويُسرة، ثمّ ادفَعها.

- كيف؟ وبأيَّةِ أدوات؟

- لا تسأَلْ مثلَ هذهِ الأسئلة. استخدِم يديكَ ودَعِ البقايا وفضَلاتِ الحَريقِ تنزل.

أغمضَ جوليان عَينَيهِ وتحسَّسَ قطعةَ الحَديد الأولى وزحَفَ إلى الأعلى. أخذَتِ الفَضلاتُ تتساقط. وظلَّ جوليان يزحَفُ إلى الأعلى. وعندما عرفَ أمكِنةَ الفُتُحاتِ دفعَ الفَضَلاتِ والبَقايا إلى الأسفل.

بدأَتْ عَيناهُ تُؤلمانِه، فقدِ امتلأتا بالرَّمادِ وبقايا الموادِ المُحترقَة. أمّا أنفُهُ فلم يعُدْ قادِراً على التنفُس. صارَ جوليان يتنفَّسُ من فَمِهِ، وكادَ يُغمى عليه. فعادَ أدراجَه.





ـ لماذا عُدتَ سريعاً؟

ـ لا أستطيعُ مُواصَلةَ العمل.

ـ لا بأس. تنفَّس جَيِّداً، ثمَّ اصعَدْ حيثُ كُنت!

منظِّف مداخن! منظِّف مداخن!

وبقيَ يصعدُ إلى الشِّقق، ويصعَدُ من ثمَّ إلى المداخن.

واستمرَّ ذلكَ يوماً إثرَ يوم. وأُسبوعاً إثرَ أُسبوع.

ـ أيُّها الولدُ الأسود! أيُّها الولدُ الأسود!

كانَ الأولادُ يلاحِقونَهُ بالسُّخريةِ، وكانَ جوليان يرفَعُ قَبضَتَهُ في وُجوهِهم.

ـ دَعهُم، قالَ المعلِّم، ولا تنظُر إليهم واستمرَّ في مُناداتِكَ المعهودة.

ذاتَ يوم جاءَ صَبيٌّ يعملُ في أحدِ الأفرانِ نحوهُما راكضاً. كانَ يُنادي من بعيدٍ ويلَوِّحُ لهما وهوَ مَا زالَ في السّاحةِ الخلفية.





الموقِدُ مُشتَعِلٌ

ولا يكادُ جوليان يقدِرُ على التنفُّس.

تملَّكَهُ الخَوفُ

لكنَّ عليهِ أن يُواصِلَ الصُّعودَ

وليسَ ثمَّةَ من مكانٍ يصعدُ إليه إلاّ في الأعالي

وكانَ جوليان يصعدُ يائساً إلى الأعلى

كما حصلَ معهُ ذاتَ مرّة..

كانت إحدى العَنزاتِ قد هَربَت مع مَولودِها

لأنَّ نَسراً قد أفزَعَها وأخافَ ولدَها.

اختبأتِ العَنزةُ في شِعْبٍ من شِعابِ الجَبلِ، ثم زلَّتْ قدمُها فسقَطَت وظلّتِ ابنتُها الصغيرةُ تستشعِرُ الفَزَعَ في الأدغال.

تدلّى جوليان عن طريقِ الحبلِ إلى الأسفل.

وعندما وصلَ إلى الحيوانِ الجَريحِ، هبَطَ النَّسرُ سريعاً

مُحاولاً أن يظفرَ بفريسَتِه.

رشقَهُ جوليان بالحِجارة.

هربَ النَّسْرُ بعيداً وحلَّقَ في الفَضاء.

يستطيعُ الرُماةُ، في هذهِ الأثناءِ، أن يُطلِقوا النار نحوه.

لقد جَرى إنقاذُ العَنزةِ الصَّغيرةِ، وجَرى الاحتِفاءُ بجوليان وكأنَّهُ واحدٌ من الأبطال. لكنَّ العنزةَ الصَّغيرةَ لم تعِشْ سوى بضعةِ أيّامٍ، كما ماتَت أُمُّها من قَبل.

تُرى أكانَتْ تلكَ هي المُصيبةُ الَّتي تحدّثَ عنها الرَّجُلُ ذو النَّدبَة؟

لقد قالَ لأبي:

- إنَّ الفَقرَ قادمٌ لا محالةَ إلى هُنا، بأسرَعَ ممّا يفكِّرُ المَرء.

ثمّ أضاف:

- سأعودُ ثانيةً.



عندما فتحَ جوليان عَينَيهِ، وجدَ نفسَهُ مُلقىً على الأرضِ، مُبلَّلاً، لأنَّهُ جرى سكبُ الماءِ علَيه. كانَ النّاسُ يتحلّقونَ من حَولهِ، يحدِّقونَ فيهِ أو يُثرثِرون.

تنحنَحَ المعلِّمُ ومدَّ يدَهُ لجوليان، وساعَدهُ على الوُقوفِ، ثمَّ وضعَ الكيسَ الأخفَّ وزناً على كتِفهِ وسارا معاً إلى الخارج.

في المنزلِ، قالتِ زوجةُ المعلِّمِ وهي تجلِسُ في المطبخ:

- لا يستحقُّ الفاشِلُ شَيئاً من الطعام.

ولم يَبذُلِ المعلّمُ أيَّ جُهدٍ في الدِّفاعِ عن جوليان. فبقيَ جوليان سجيناً في غُرفتِهِ كالعادةِ، الَّتي قامَ أنسلمو بإغلاقِ بابِها عليه وهو يبتسمُ بشَماتة. كانَ جوليان يشعرُ بالإرهاقِ الشَّديدِ، ومع ذلكَ فقد جافى النَّومُ عَينَيه.

سمعَ جوليان، عندَ مُنتصَفِ اللّيلِ، صوتَ بابِ أنجليتّا وخَطواتِها.

يتذكَّرُ جوليان كيفَ أُصيب بالذُّعرِ يومَ وقفَتْ تلكَ الفَتاةُ أمامَ بابِ حُجرَتِهِ الضَّيِّقة الّتي تُشبِهُ القفص. ومنذُ ذلكَ اليوم صارَ السرُّ المشتركُ الّذي يجمعُ بينهُما هو مُحاولَة التخفيفِ عن جوليان ومؤاساتُه. فقد سعَتْ أنجليتّا كي تخفِّفَ من إحساسِ جوليان بالغُربةِ، وأن تُنسيَهُ تلكَ الأحلامَ المُزعجةَ الّتي صارَ يَراها كُلَّ ليلة.

فتحَتْ أنجليتّا البابَ بهُدوء، ودخلَتْ إلى الغُرفةِ، وقدَّمَتْ لهُ صَحناً مملوءاً باللَّحم المُجفَّفِ والبَندورةِ، كانت قد خبَّأَتْهُ تحتَ السَّرير. تذكَّرَ جوليانِ أنَّ أنسلمو كانَ يأكلُ من هذا الطَّعامِ في المساءِ، ويتلمَّظُ حتى يُشعِرَ جوليان بالألم، نظراً لما يُعانيهِ من الجوع.

ـ وأنتِ، ألا تأكُلين؟

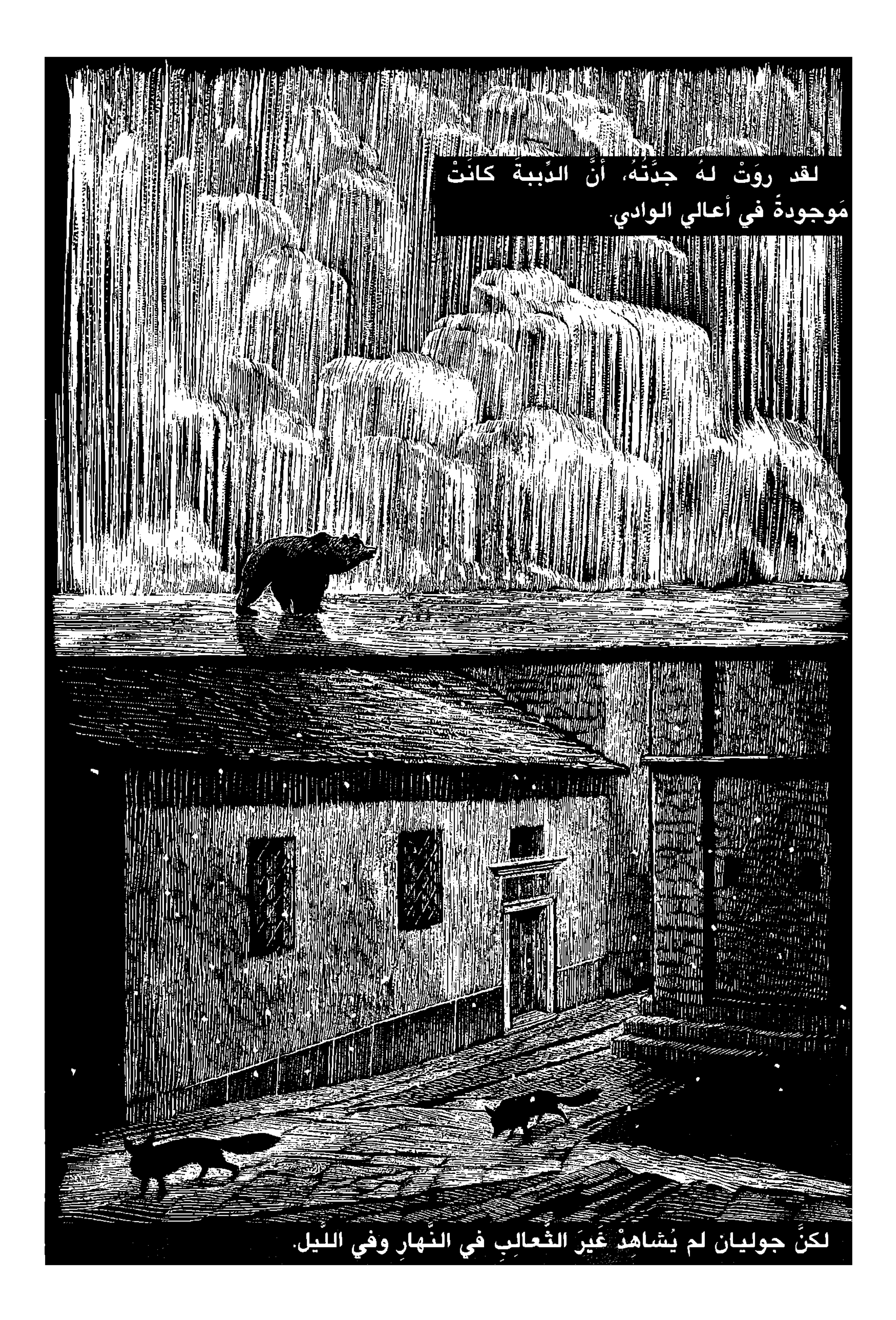
ـ خُذ هذا الصَّحنَ، وعليكَ بعدَ أن تأكُلَهُ أن تحكيَ لي بهُدوءٍ، حتّى لا تصحوَ والدتي، عن بلادِك.

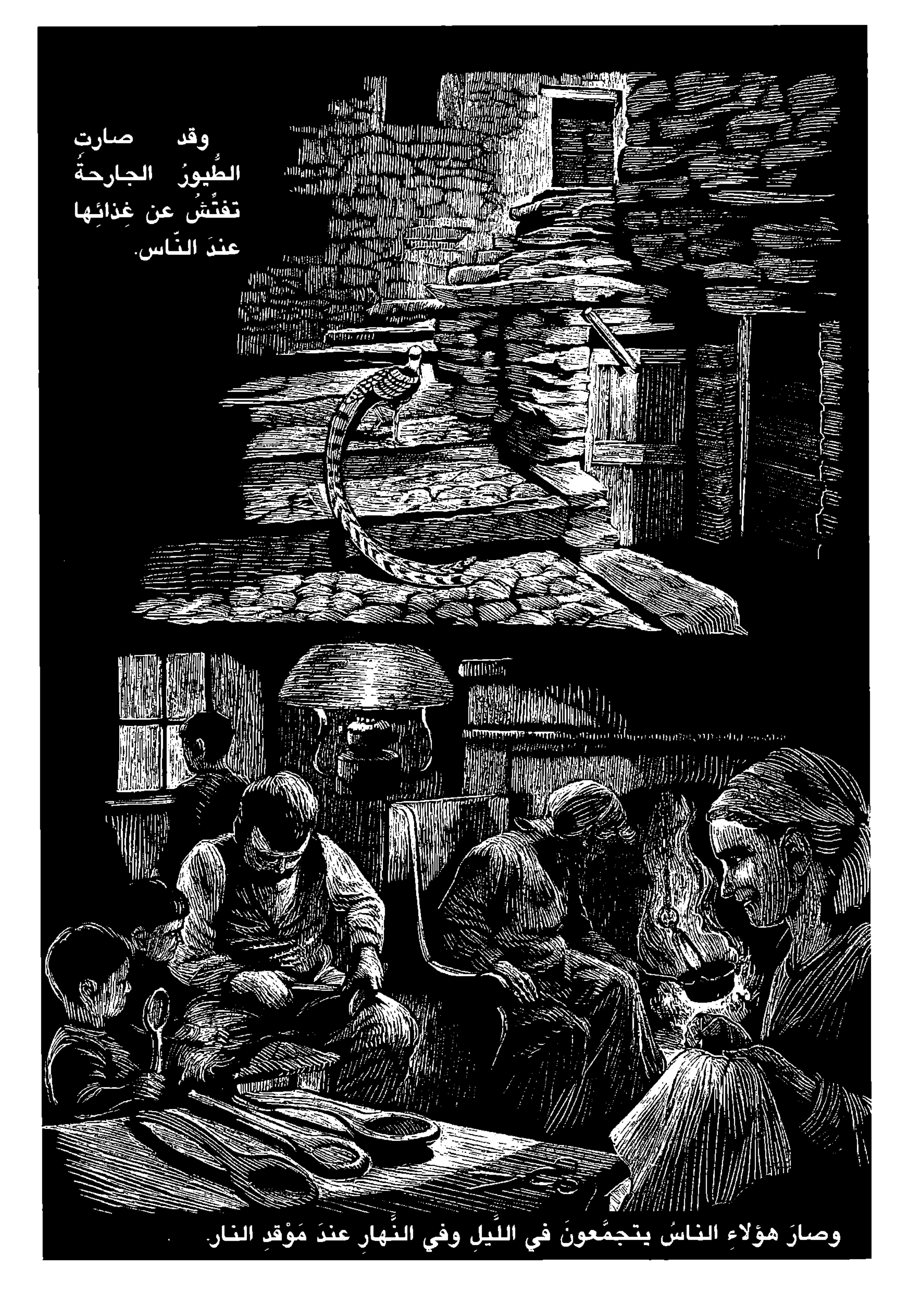
ـ عمّاذا سأتحدَّث؟

ـ عنكَ وعن وطنِكَ، عن تيسّن وحيواناتِها..

كانَ جوليان قد حكى لها أنَّ أباهُ لم يكُنْ يُريدُ إرسالَهُ إلى ميلانو، لكنَّ الشتاءَ الذي مرَّ كانَ شتاءً قاسياً، فقد تساقطَتِ الثلوجُ فيهِ والعِنَبُ ما يزالُ في الكُرومِ، ثمَّ ازدادَ البردُ حتّى حلّ الصّقيعُ والتجمُّدُ على نَحوٍ لم يحدُثْ من قبلُ على الإطلاق.




لقد روَتْ لهُ جدَّتُهُ، أنَّ الدِّببةَ كانَتْ مَوجودةً في أعالي الوادي.
لكنَّ جوليان لم يُشاهِدْ غَيرَ الثَّعالِبِ في النَّهارِ وفي اللَّيل.


وقد صارتِ الطُّيورُ الجارحةُ تفتِّشُ عن غِذائِها عندَ النّاس.
وصارَ هؤلاءِ الناسُ يتجمَّعونَ في اللَّيلِ وفي النَّهارِ عندَ مَوْقدِ النار.



علّقَتْ أنجليتّا بقَولِها:

ـ وكأنَّ هؤلاءِ الناسَ يعيشونَ في أحدِ الكُهوف.

كانت تتفهَّمُ العَوَزَ الَّذي يحكي جوليان عنه. وكانت تُصغي إلى أحاديثِهِ وكأَنَّ تلكَ الأحاديثَ أساطيرُ ومغامرات.

بعدَ الشِّتاءِ القارسِ، جاءَ الصَّيفُ الجاف.

يبسَ المحصولُ، حتّى أنّهُ لم يكَدْ يتفتَّحُ أو ينمو.

واضطُرَّ الفلاّحونَ أن يَسيروا بمواشيهِم إلى المراعي البَعيدةِ، العالية. كانَ كلُّ شيءٍ في الوادي يبدو وكأنَّ حريقاً أصابَه. وقد احترقَتِ السُّهولُ، بعد ذلكَ، حقيقةً.

وعندَما شبَّتِ النّيرانُ في التّلالِ، بدأ الناسُ يطرُدونَ أبقارَهُم بعيداً، إلى الطُّرُقاتِ الّتي اعتادوا تجنُّبَها.

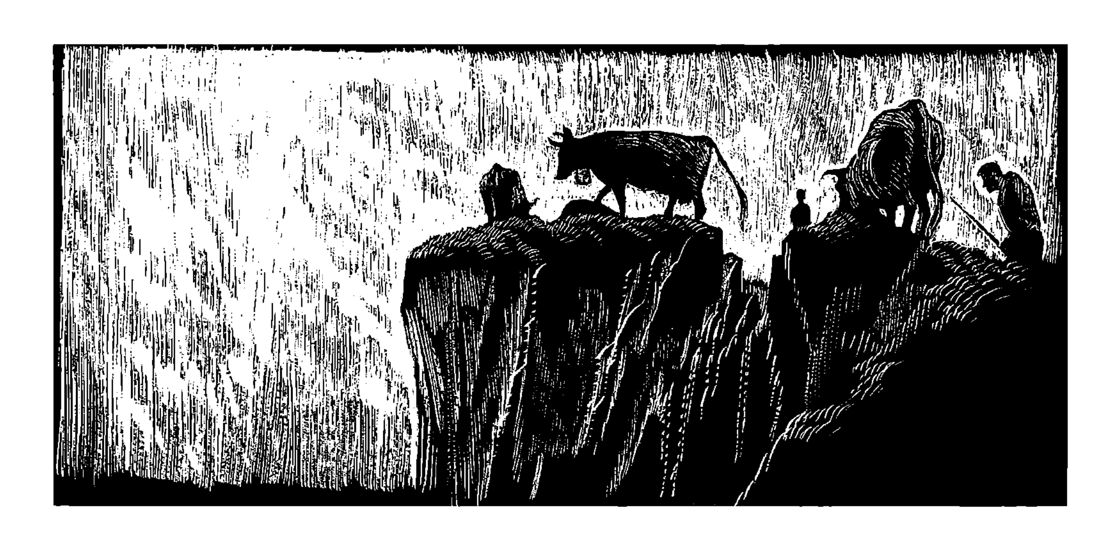
عَرَفْت أنجليتّا أنّ إحدى البقراتِ قد سقطَتْ، وأنَّ والدةَ جوليان قد وقعَتْ هي الأُخرى، فكُسِرَتْ رجلُها.

فقد دأبَ جوليان على ذكرِ تلكَ الحادثةِ، كما دأبَ على تذكُّرِ أنيتا.

أغفى جوليان أثناءَ تلكَ الأحاديثِ، فأيقظَتْهُ أنجليتّا بعدَ هُنَيهة.

لم يُزعِجْهُ أن يعودَ من أحلامِهِ إلى هذا القفص.

كلُّ ما كانَ يعنيهِ أنّ أنجليتّا تستطيعُ أن تُبعِدَ عنهُ ألمَ الحَنين إلى الوطن.



تنقَّلَ جوليان في هذه الأثناء بينَ منازلِ العَديدِ من السّادةِ والأغنياء. لكنَّ ما شاهدَهُ هذهِ المرَّةَ، كانَ يفوقُ كُلَّ ما سبقَ لهُ أنْ رآه.

كانت رُفوفُ الكُتبِ تملأُ الممرَّ، والسجاجيدُ الغاليةُ الثَّمنِ، الفاخرةُ النَّوعيّةِ، تنتشرُ في كلِّ مكان. أمّا صاحبُ المنزلِ فكانَ يبدو في ملابسِهِ الّتي يرتَديها وكأنَّهُ يحتفِلُ بالعيد.

قالَ صاحبُ المنزل:

ـ لقد أردتُ يومَ أمسِ أن أقومَ بحرقِ بعضِ الأوراقِ والوثائقِ، لكنَّ الدُّخانَ ظلَّ حبيسَ المِدفأةِ، ولم يخرُجْ من المدخنة. ولهذا دعَوتُكما.

ـ نحنُ في الخِدمة. ردَّ المعلِّمُ وهو ينحَني ليتفحَّصَ المدفأةَ، ثمَّ قال:

ـ لا بُدَّ أنَّ شيئاً ما قد منَعَ الدُّخانَ من الخُروجِ، ولا بُدَّ من فحصِ المِدخنة. ثم أمرَ جوليانَ بالصُّعودِ إلى الأعلى.

صعدَ الفتى بهِمَّةٍ ونشاطٍ إلى الأعلى.. حتّى وصلَ إلى منطقةٍ مملوءةٍ بالشَّوكِ، قد تكونُ خشباً أو قشّاً. قامَ جوليانُ بتحريكِها، فَمَرَّتْ تلكَ الأشياءُ قريباً منهُ وسقطَتْ على الأرض.

عادَتِ المِدفأةُ تعملُ من جديد.

قالَ صاحبُ المنزلِ فجأةً:

ـ ما هذا؟ عُشُّ أحدِ الطُّيورِ! إنّ أصدقائي الطُّيورَ يسكُنونَ عندي دونَ أنَ أعرف. فهل هذا هو الشُّحرورُ الَّذي أسمعُهُ وهو يغرِّدُ لي بصوتِهِ الجميل؟

ثمّ صارَ الرَّجلُ يقلِّدُ صوتَ الطائرِ، وأخذَ يعزفُ على البيانو ويغنّي بصَوتٍ عذبٍ لم يكُنْ جوليانُ يتوقَّعُه.

استمعَ جوليانُ إلى أصواتِ الطُّيور:

الشُّحرورُ وطائرُ البرقشِ، وتذكَّرَ العُشَّ الذي رآهُ في بُرجِ الكنيسةِ والبومةَ الصَّغيرةَ الّتي عثرَ عليها وأعطاها إلى أنيتا.



صوتُ ذلكَ الطائرِ الصَّغيرِ، وريشُهُ الناعِمُ وقلبُهُ الصَّغيرُ الَّذي كانَ يدقُّ بقوَّة.

هديرُ الماءِ في الوادي، الهواءُ البارِدُ المُنعِشُ والحرُّ يشتعِلُ في الأعالي.

كانَ جوليان يُفضِّلُ العملَ إلى جانبِ الأراضي المَزروعةِ بالخُضرَوات. أما أمُّهُ فقدِ اعتادَتْ أن تعمَلَ في الأسفلِ قريباً من الشِّعْبِ الجَبَليّ.

على مسافةٍ قريبةٍ جدّاً كانت توجَدُ أفضلُ المناطقِ التي تقطُنُ فيها الدِّبَبةُ، وهو لم يُرِ هذا المكانَ لأحدٍ سوى أنيتا. فقد كانَ يتقاسَمُ معَها أسرارَهُ كُلَّها.



وقد راقبَ جوليان من أسفلِ الوادي سُطوحَ المنازِلِ أيضاً.

ولم يكُنْ ليَبوحَ بالمكانِ، لو لمْ يرَ والدُهُ ذاتَ صباحٍ تَلَفاً كبيراً في حَقْلِ الذُّرة.

عرفَ جوليان، في الحالِ، الآثارَ في الحقلِ فقرَّرَ أن يُحضِرَ البُندُقيَّةَ القديمةَ إلى سطحِ المنزِل.

غناءُ الشحارير

أكلُ التّوتِ البَرّيِّ مع أنيتا

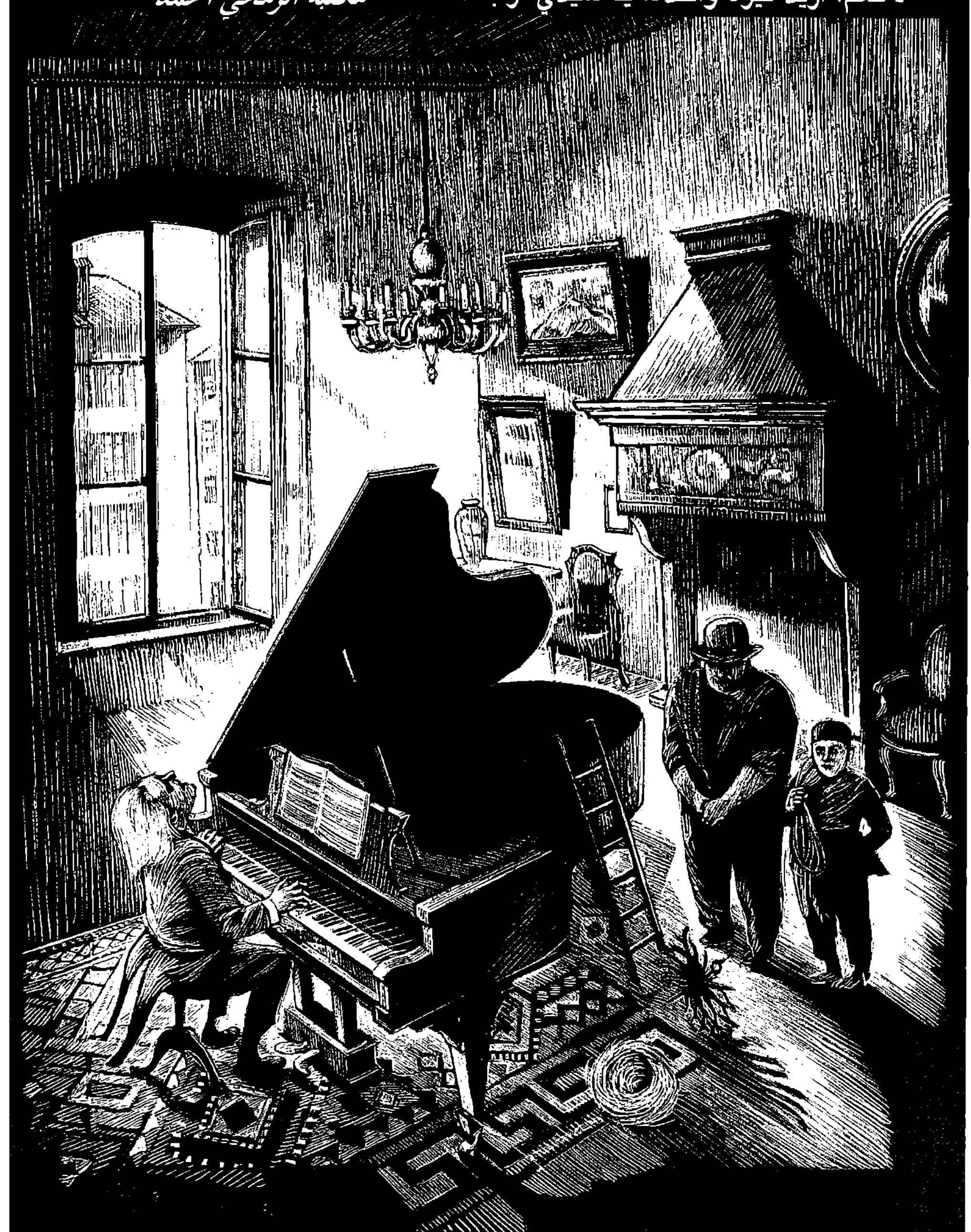
نشيدُ طائرِ البرقشِ الجَبليّ.

ـ ألم تُعطِهم أُجرتَهُم يا سيّدي؟

استَيقظَ جوليان مذعوراً، من أحلامهِ؛ فقد قطعتِ الخادمةُ بسؤالِها ذلكَ الانسيابَ الموسيقي.

عجِبَ ذلكَ الرَّجلُ الذي كانَ يجلسُ إلى البيانو، وابتسَم لجوليان، فقالَ المعلِّم:

ـ نعم، أُريدُ ليرةَ واحدةً، يا سيّدي، رجاءً.





بعدَ مدّةٍ يسيرةٍ وقَعَ لجوليان ما سبَقَ أنْ وقعَ لهُ من قبلُ، فقَدْ كادَ يختنِقُ وهو يعملُ في تنظيفِ إحدى المداخن.

جلسَ جوليان فوقَ أحدِ أحجارِ الرَّصيفِ وأعلَنَ تمرُّدَهُ بقَولِه:

- أنا غيرُ قادرٍ على الاستمرارِ في العمل.

فردَّ المعلِّم:

- نحنُ غيرُ قادرَينِ على العَودةِ إلى المنزلِ الآن.

- أنا لا أستطيعُ مُواصلةَ العَملِ، صِدْقاً.

- إذنْ تعالَ معي، لنشرَبَ شَيئاً في أحدِ المقاهي.

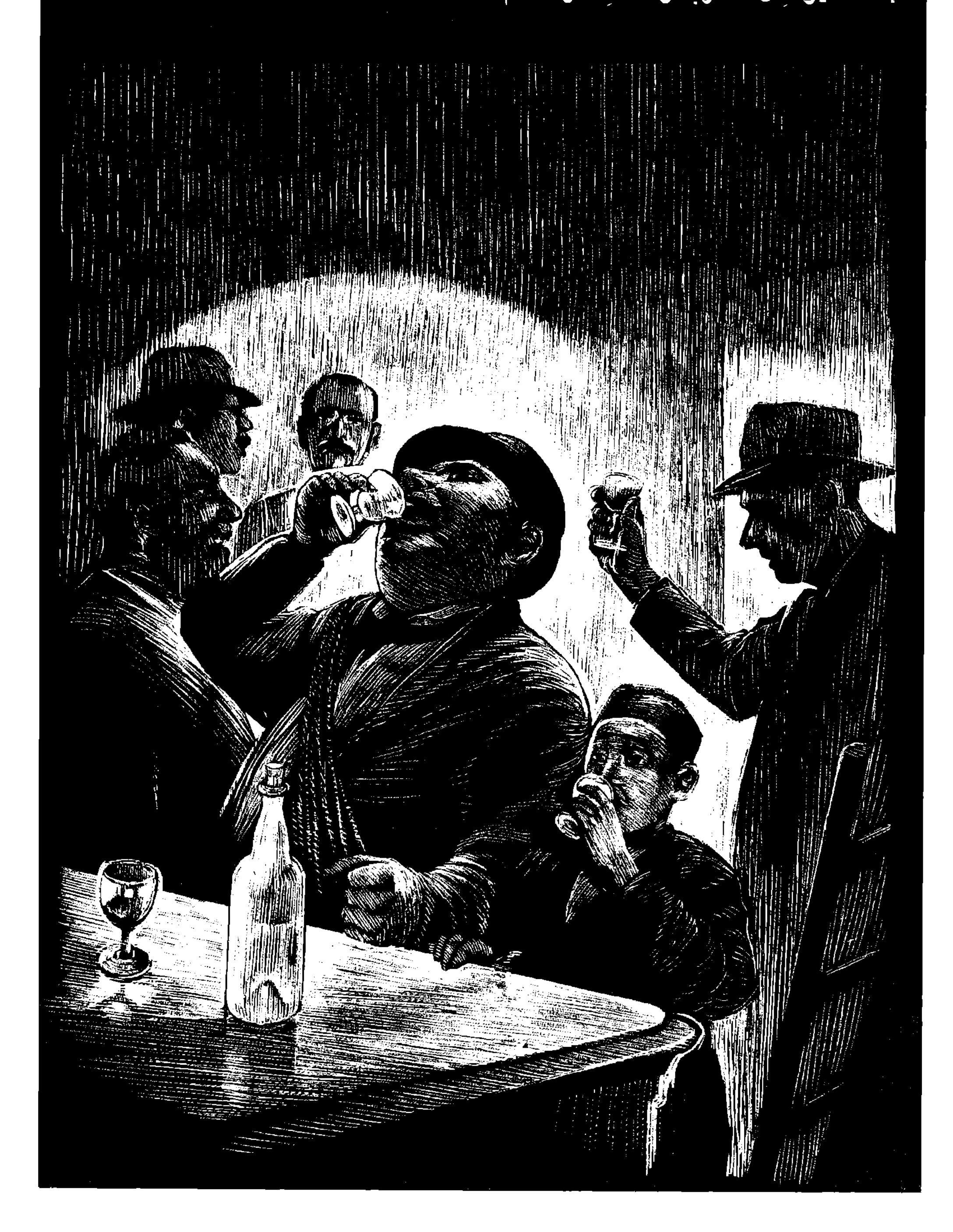
دخلَ المُعلِّمُ وتبِعَهُ جوليان.

تمنّى جوليان لو يستطيعُ أن يطرُدَ الأطفالَ الَّذينَ لا همَّ لهُم إلاّ السُّخريةَ منه. فقد صارَ هؤلاءِ الأطفالُ الَّذينَ يُلاحِقونَ من يعملونَ في تنظيفِ المداخنِ جُزءاً من حَياتِه، كالسُّخامِ الّذي يعلَقُ بهِ بعدَ تنظيفِ المدخنة. اعتادَ جوليان على نِداءاتِ السُّخريةِ، ولم يعُدْ يلتفتُ صَوبَ من يُطلقُها من الأطفالِ إلاّ نادراً. ولكنَّ الصُراخَ كانَ يؤذيهِ، عندما يكونُ السُّخامُ كثيفاً، فيدخُلُ إلى عَينَيهِ، اللَّتَينِ تشتَعِلانِ من الألم.

أما أسوأُ أنواعِ السُّخريةِ فكانَتْ تصدُرُ عن العِصابةِ التي تلتَفُّ حولَ وَلدٍ كانَ قد أُصيبَ بالجُدَري. كانَ لهذا الولدِ طريقةٌ مميَّزةٌ في السُّخرية. فقد لاحظَ أنَّ المعلِّمَ يُصفِّرُ لمُعاونيهِ إذا أرادَ حمايتَهم.

لكنَّ المعلِّمَ روسّي ظلَّ يمشي، ولم يفكِّر إلاّ في المَشروبِ الَّذي سيَحتَسيه. فازدادَ ضَحِكُهُم شراسةً.

وضعَ المعلِّمُ أمامَ جوليان شراباً، لم يعرِفْ جوليان كُنهَه، فرفضَ أن يشربَه. لكنَّ المعلِّمَ هدَّأَ من رَوعِهِ، وطلبَ منهُ أن يجرِّبَ هذا الشَّرابَ، ففعَلَ جوليان. وظلَّ المعلِّمُ جالساً يُواصِلُ الشُّربَ والضَّحِكَ والكلام.



كانَ الظَّلامُ قد حلَّ، عندما تركا المقهى وسارا في الطَّريق. كانَ المعلِّمُ يعتمدُ على جوليان وهما يذرعانِ الشارعَ جيئةً وذهاباً، لنصفِ ساعةٍ، دونَ أن يلتفتَ إليهما أحدٌ، على الرُّغمِ من النداءاتِ الّتي كانا يُطلقانِها بصَوتٍ مُرتفع.

بقي الوَلَدُ المجدورُ مع عِصابَتِهِ يُلاحِقُهُما، وكانَ جوليان يلتَفِتُ نحوَهُم من حينٍ لآخرَ ويهدِّدُهُم. وفي نهايةِ المطافِ قالَ المعلِّم: ـ «من الأفضلِ أن نعودَ إلى المنزل».

وعندما رفعَ جوليان صوتَهُ مُنادياً، لاحقَتْهُ تعليقاتُ أصحابِ المِهَن:

ـ الصبيُّ يُشبِهُ مُعلِّمَه!

ـ ألم نتعاطَفْ، من قبلُ، مع ذلكَ الصبيّ؟ لقد صارَ شاحبَ الوَجهِ لكَثرةِ الشَّراب!

كانَ جوليان يعلَمُ ما الّذي ينتظِرُهُ في نهايةِ الدَّرجِ، فأدخلَ عُدَّةَ العَملِ إلى المَخزَنِ، واغتسَلَ ودخلَ إلى غُرفَتِه.



ازدادَ الوضعُ سُوءاً في صَباحِ اليوم التّالي. فقدِ اكتشفَ المعلِّمُ أنّ مِحفظَتَهُ قدِ اختفَتْ وفيها ليرتان. في البِدايةِ صاحَتْ بهِ زَوجتُه:

- لقد أضعتَ اللّيرتَين بعَبَثِك.

بعدَها، اندفعَتِ الزَّوجةُ إلى غُرفةِ جوليان وأمسكتْ بهِ وضرَبَتهُ وقامَتْ بتَفتيشِه.



- لقد أخفَى المِحفظَةَ منذُ يَوم أمسِ، وقد شاهدتُهُ وهو يتسلَّلُ إلى علاّقَةِ المَلابِس! صاحَ أنسلمو من المَطبخ.

- كلاّ، كلاّ. أنا لستُ لِصّاً!

- ومن هو اللِّصُّ، إذنْ، إن لم تكُنْ أنت؟! صاحَتِ الزَّوجَةُ وهيَ تضرِبُ جوليان، وتصرُخُ في وَجهِ زَوجِها.

أخذَ المعلِّمُ جوليان معهُ وانصرَفا، لأنَّ وقتَ العَمَلِ قد أزِف. فصاحَ أنسلمو:

- ماذا؟ أتريدُ أن تحميَ هذا الولد؟ انتظِرْ! فسنَجِدُ الليرتَينِ، وسنفتِّشُ غُرفةَ جوليان الحَقيرة!

كانَ جوليان يشعرُ بالاطمئنانِ، لأنَّهُ كانَ واثِقاً من بَراءتِه، لهذا همَسَ لنَفسِهِ بأنَّهُم سيبحَثُونَ طويلاً ولن يجدوا شيئاً. وكانَ ما يزالُ على اعتِقادِه، عندَما عادَ ظُهراً ووجدَ السيِّدَةَ روسّي تنتظرُهُ أمامَ المنزل.

- وصلَ اللِّصُّ أخيراً! صاحَتِ السيِّدَةُ روسّي لتُبلِغَ جارتَها بذلكَ، وكانَتْ تُقرِّبُ المِحفظَةَ من زَوجِها في تلكَ الأثناء.

- هذهِ هي المِحفظَة. لقد أخفاها في غُرفَتِه. وعليكَ أن تعرِفَ أيَّ ولَدٍ قد أدخلْتَهُ إلى منزِلِنا!

وبَّختْهُ السيِّدَةُ روسّي وشارَكَها الجميع. اقتنَعَ المعلِّمُ بأنَّ جوليان مُذنِبٌ، لكنَّهُ جرَّهُ إلى الشِّقَّةِ، لأنَّهُ لم يكُنْ يَرغَبُ في أن يعرِفَ النّاسُ بالأمر. وقالَ لهُ وهو يُمسكُ أُذُنَه:

- أنتَ لم تسرِقْني فَحسْب، بل كذَبْتَ علَيّ.

- أُقسِمُ لكَ بكُلِّ ما هو مقدَّسٌ عندي بأنَّني لم أفعَل.

- كاذِبٌ ولصّ. قالتِ السيِّدةُ روسّي وهي تضرِبُ جوليان بخشَبَةٍ كانَتْ في يَدِها.

- ماذا تفعَلينَ يا أُمي؟ توَقَّفي عن الضَّربِ، وإلاّ ألقَيتُ بنفسي إلى جِوارِه. قالت أنجليتّا وهي تَقِفُ أمامَ بابِ غُرفتِها.

- لكنَّهُ لصٌّ. لقد سرقَ أباكِ.

- ومع ذلكَ لا يحقُّ لكِ أن تضربيه. عِديني بأنَّكِ لن تَفعلي.



ـ قفْ وإلاّ أطلقتُ عليكَ النّار! ماذا تصنَعُ ها هُنا؟ كانَ الكَلامُ يصدُرُ بصَوتٍ خَفيض.

ـ أنا، أنا صَبيٌّ يعملُ في تَنظيفِ المداخِنِ، جئتُ إلى هُنا لأنَّني أُريدُ أن أستريحَ..

ـ تعالَ معي! قالَها الرَّجلُ وقبضَ على يد جوليان بقُوَّةٍ وجرَّهُ إلى الغابةِ الصَّغيرةِ الواقِعةِ خلفَ الشاطئِ، حيثُ كانَ يتجمَّعُ مجموعةٌ من الرِّجالِ العابِسي الوُجوه.

كانَ جوليان يُساقُ إلَيهِم وكأنَّهُ أسير. صرخَ في وَجهِهِ أحدُهُم:

ـ على ماذا تتجسَّسُ هُنا؟ تكلَّمْ، وإيّاكَ أن تكذِب. أفهِمْت؟



في خاتمةِ حكايتِهِ التي قصَّها علَيهم، أكَّدَ جوليان مُجدَّداً أنَّهُ لم يجئ إلى هذا المكانِ إلاّ ليبحثَ عن صديقِهِ ألفريدو، وأنَّهُ ليسَ لصّاً بكُلِّ تأكيد. عندها ضَحِكَ الجميع.

بعدها قالَ لهُ زعيمُ الجَماعة: ـ «قُلْ ما تشاءُ، لكنَّ عليكَ أن تُرينا ما تَستطيعُ أن تَفعَلَه. عليكَ أن تَبقى هُنا بعضَ الوقت. ثمّ أعطاهُ صَحناً مملوءاً بالطَّعام، فأخذَ جوليان يأكُل، لأنَّه كانَ جائعاً لم يتناوَلْ طعاماً منذُ صَباحِ أمسِ، ولأنَّهُ لا يستَطيعُ أن يَعصِيَ الأوامر. ثمَّ طلبَ زَعيمُ الجَماعةِ من شخصٍ يُدعى أوغوستو أن يشرَحَ لجوليان ما يَنبَغي أن يقومَ به».

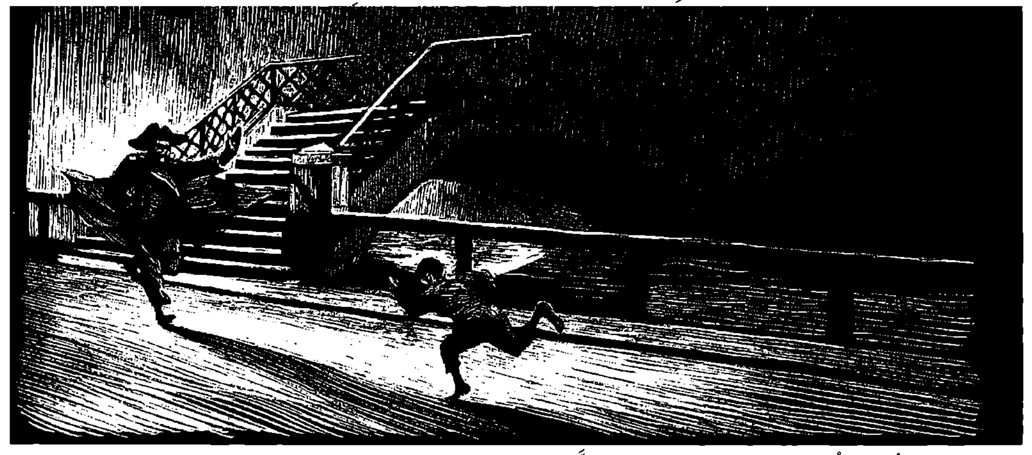


ـ عليكَ أنْ تظلَّ يَقِظاً! وعندَما تَرى شخصاً قادِماً، فَعليكَ أن تَموءَ كالقِطَّة!

ـ «لكنَّني لستُ..» ـ «كُفَّ عن هذا الكَلام!». ـ «حاضِرْ».

كانَ جوليان يستطيعُ أن يرى كيفَ قامَ رَجُلانِ بفَكِّ أحدِ القَوارِبِ المربوطة، وسارا بهِ في عَرضِ البَحرِ حتّى وصلَ إلى أحدِ المراكبِ المُحمَّلَةِ بالبضائع.

كانَتْ تَجري عمليَّةُ تنزيلِ البَضائعِ إلى القارِبِ بهُدوء. وعندما عادَ الرَّجُلانِ بالقارِبِ المملوءِ بالبِضاعةِ إلى الشاطئِ، ساعدَهُمُ الجميعُ في تفريغِ حُمولَةِ المركِب.



جاءَتْ فُرصَةُ جوليان ليَهرُبَ، فتسلَّلَ بهُدوءٍ ثمَّ أخذَ يعدو.

ـ قِف!

وجدَ جوليان نفسَهُ قريباً من شُرطِيٍّ، كانَ يَقِفُ على مقرُبَةٍ من مدخَلِ أحدِ البُيوت. فغيَّرَ اتجاهَهُ، وصارَ يركُضُ في الاتِّجاهِ المُعاكِسِ، لكنَّ شُرطِيّاً آخرَ استطاعَ أن يُلقيَ القَبضَ عليه.

أطلقَ هذا الشُّرطِيُّ صَفّارَةَ إنذارٍ، فجاءَ رِجالٌ آخرونَ بزِيٍّ مدنيٍّ وأخذوا جوليان معهم.

سيطَرَتْ على جوليان في هذِهِ اللَّحظةِ فكرَةٌ رئيسيَّةٌ، وهي أنَّهُ لم يهرُبْ إلاّ لأنَّ أنجليتّا وضعَتْهُ في هذا المأزِقِ، وهي لن تَثِقَ به إن سُجِنَ كذلك.

بدا كلُّ شَيءٍ مختَلِفاً، فلم تستطِعْ أنجليتّا أنْ تَنسى بعضَ ما حدَث. فقد تذكَّرَتْ أنَّها رأَتْ أنسلمو ومحفظَةَ أبيها في يده. فالجميعُ يعرِفونَ أينَ يعلِّقُ الأبُ سُترَتَهُ. لم يخطُرْ هذا الأمرُ، في تلكَ اللَّحظَةِ، ببالِها. أما الآن، تُرى هل قامَ أنسلمو بالثَّأرِ؟ لقد سبقَ لجوليان أنْ حدَّثَها عن تهديداتِ أخيها له. ليتَها تستطيعُ الحَديثَ مع أبيها. ارتفعَتْ درجَةُ حَرارتِها جَرّاءَ ما تشعُرُ بِهِ من قَلَقٍ وانفِعال. لهذا نامَتْ أُمُّها إلى جانِبِها، فلم تستطِعْ ليلَتَها أن تتسلَّلَ إلى غُرفةِ جوليان.

صحَتْ أنجليتّا صَبيحَةَ اليوم التّالي على الصُّراخ، فقد هَربَ جوليان وأخذَتِ الأمُّ تُهدِّد، فنادَتْ على أبيها وسألَتْه:

ـ هل صحيحٌ أنَّ جوليان المِسكينَ قد هرب؟

فصرخَتْ والدتُها غاضبةً:

ـ هل أنتِ قَلِقَةٌ على هذا اللِّص؟

ـ ليسَ جوليان لصًّا. هذا هو اللِّصّ!! وأشارَتْ إلى أخيها.

أرادَ الأبُ أن يُعاقِبَ أنسلمو، فدافعَتِ الأمُّ عن ابنِها والتجأَ أنسلمو إلى غُرفَةِ جوليان، وعندَما أحضرَ الأبُ حِزامَهُ ليضربَهُ بِهِ، كانَ أنسلمو قد هَرب.

اخترعَتِ السيِّدةُ روسّي حكايةً لتَرويَها للجيرانِ في ما بعد، في حينِ شرَعَ المُعلِّمُ بالبَحثِ عن صَبيِّهِ، فسألَ عنهُ في كلِّ مكانٍ، ليتَّجِهَ إلى الشُّرطةِ في خاتِمَةِ المطاف. وبعد أن سألَ عنِ الصَّبِيِّ في عِدَّةِ مراكزَ للشُّرطةِ عثرَ عليهِ، وكانَ يُصِرُّ على أنَّهُ ليسَ لِصًّا.

وعندَما عادَ أنسلمو في المساءِ، واضطُرَّ لمُصافحَةِ جوليان، أدركَ كلٌّ منهما أنَّ العَداءَ بينهُما لم يتوقَّفْ، بل لعلَّهُ بدأ منذُ تلكَ اللَّحظة. لكنَّ المُعلِّمَ وعدَ جوليان بأنَّهُ لن يحبِسَهُ في غُرفتِهِ بعدَ العمل، وأخبرَهُ أنَّ بإمكانِهِ الذَّهابَ إلى الساحة.

وعندما حدَّثَتهُ أنجليتّا عما حدَثَ بالتَّفصيلِ، أدركَ جوليان أنَّ عليهِ أن يشكُرَها.



صارَ جوليان قادِراً على تحمُّلِ أعباءِ العَملِ، فقدِ اعتادَ العملَ ووفى المُعلِّمُ بوَعدِه.

صحيحٌ أنَّ السُّخامَ بقِيَ يُؤلمُ عَينَيهِ ورِئتَيهِ، لكنَّ تسلُّقَ المداخنِ غدا أسهل. بقيَ شيءٌ واحِدٌ لم يستطِعْ جوليان أن يعتادَ عَليهِ، وهو سُخريةُ أولادِ الشَّوارِع.

قالَ لهُ معلِّمُه:

ـ هذهِ عداوةٌ قديمة. فلا تنفَعِلْ كثيراً!

لكنَّ ذلكَ لم يُخفِّفْ من قَلقِ جوليان، فكثيراً ما كانَ الوَلدُ المَجدورُ يكمُنُ لجوليان، وكانَ أنسلمو هو الَّذي يخبِرُهُ عن مكانِه.

شرعَ جوليان يفتِّشُ عن ألفريدو. وقد أُصيبَ جوليان بالذُّعرِ عندَما رآه ثانِيةً في مطبخ. كانَ ألفريدو شاحبَ الوَجهِ، هَزيلاً، أصفرَ البَشَرةِ ذا عَينَينِ مُحمرَّتَينِ، ونَظراتٍ جوفاءَ تُشبهُ نظراتِ أنجليتّا.

كانَ المُعلِّمُ الّذي يعملُ ألفريدو عندَهُ رجُلاً بالغَ السُّوء. كانَ يُمضي مُعظَمَ وقتِهِ ثمِلاً، ولا يكادُ يُعطي ألفريدو ما يكفي من المالِ لِشراءِ الطّعام. لكنَّ جوليان جاءَ طالباً المُساعدةَ، وهوَ يرغَبُ في تشكيلِ عِصابة. فقالَ له ألفريدو:

ـ انضمَّ إلَينا، وسنقومُ بحِمايتك.



- لكنَّني أسكُنُ في حيٍّ من أحياءِ المدينة.. وأنتم؟

- نحنُ منتَشرونَ في كُلِّ مكان. ونحنُ أقوياءُ، وعندَما تحتاجُنا، فسنكونُ عندَكَ في أقلَّ من ساعة. ردَّ أَلفريدو وهو يتأمَّلُ الساعَةَ الموجودةَ على أحدِ المباني.

تقدَّمَ ألفريدو وسارَ في مَمَرٍّ سِرّيٍّ حتّى وصلَ إلى مبنىً قديم. بعدَها زَحَفا ودخَلا من مدخلِ أحدِ الآبارِ، وشرَعا يتَحسَّسانِ الطَّريقَ حتّى وصلا إلى البَوّابة. قرعَ ألفريدو البابَ فسألَهُ صَوتٌ منَ الدّاخِلِ عن كلمةِ السِّرِّ فذكرَها ألفريدو.

دخَلا الغُرفةَ، فأخذَ جوليان يتأمَّلُ المكان.

- مَنْ هذا الَّذي أحضرتَهُ يا ألفريدو؟

- إنَّهُ جوليان.

- أهوَ الَّذي كانَ معكَ في لوكارنو؟

عرفَ جوليانُ صَبيَّينِ كانا معهُ في القارِب. وقد رَوى أنطونيو كيفَ تمَّ إنقاذُهُ، وكيفَ استطاعَ السِّباحَةَ إلى الشاطئِ الآخر.

- هُدوء! اجلِسوا جميعاً!

أُصيبَ جوليان بالدَّهشة. كانَ ألفريدو يأمُرُ ويَنهى هُنا، وهو ما لم يُحَدِّثْهُ عنهُ قَطّ. لم يَدْرِ جوليانِ كيفَ جرى معهُ ما جرى، فقد سألوهُ، في بادئِ الأمرِ، عن رغبَتِهِ في الانضِمامِ إلَيهم. وكفِلَهُ عُضوانِ من مدينةِ تيسّن، لأنَّ النَّقيبَ وهو ألفريدو، لا يجوزُ لهُ أن يكفَلَ أحداً.

بعدَها وقفَ ألفريدو أمامَ جوليان على نَحوٍ احتِفاليٍّ وسألَه:

ـ أأنتَ الفتى القادمُ من مدينةِ تيسّن، الّذي يعملُ في تنظيفِ المَداخن؟

ـ نعم.

ـ ينبَغي أن تردَّ: نعم أيُّها النَّقيب. همسَ أحدُهُم في أُذُنِه.

ثم أدّى جوليان قسَمَ الوَفاءِ، وتعهَّدَ بأن يظلَّ عُضواً شُجاعاً في عُصبةِ الإخوةِ السُّودِ، وأن يُحافِظَ على أسرارِهم، وأن يظلَّ مُخلِصاً لهم.

تأمَّلَهُ ألفريدو، ثمَّ تقدَّمَ نحوَهُ وعانَقَه. فاعترضَ بعضُهُم بأنَّ العِناقَ غيرُ وارِدٍ في هذهِ الأجواء. فصاحَ ألفريدو:

ـ إنَّهُ صديقي الحَميم وقد تعاهَدْنا على الوفاءِ منذُ زَمَنٍ بَعيد.

عندَها هُرِعَ الجَميعُ يُصافحونَ جوليان ويُربِّتونَ على كتفَيه.

أسدى ألفريدو لجوليان بعضَ النَّصائح، وأخبرَهُ بأنَّ عِصابَةَ الوَلَدِ المَجدُورِ، الَّتي لم يكُنْ يتوقَّعُ أن تكونَ معروفَةً إلى هذا المَدى، تُسمّى عِصابَةَ «الذِّئاب»، وهي عِصابَةٌ معروفةٌ بطُرُقِها الجَبانَةِ في القِتالِ، لكنَّ الإخوةَ السُّودَ يُخَطِّطونَ لضَربِهم.

وعندما عادَ جوليان إلى غُرفَتِهِ، رأى أنجليتّا، فأخبرَها عن صديقِهِ ألفريدو، لكنَّهُ لم يُخبِرْها عن أصدقائِهِ الجُدُدِ، والإخوةِ السُّودِ، وزعيمِهِم ألفريدو، صديقِهِ الحميم.

في الأحدِ التّالي، طلبَ جوليان من مُعلِّمِهِ أن يسمحَ لهُ بالبَقاءِ طويلاً، لأنَّهُ يُريدُ الذَّهابَ إلى الحديقةِ العامّة. سَمِعَ أنسلمو بالحَديثِ فأخبرَ عُصبَةَ الذِّئاب.



عندما وصلَ جوليان إلى الحديقةِ العامَّةِ، عرفَ أعداءَهُ في الحال. كانوا يختَبِئُونَ خلفَ الأشجارِ، أو يكمُنونَ بينَ الأدغال.



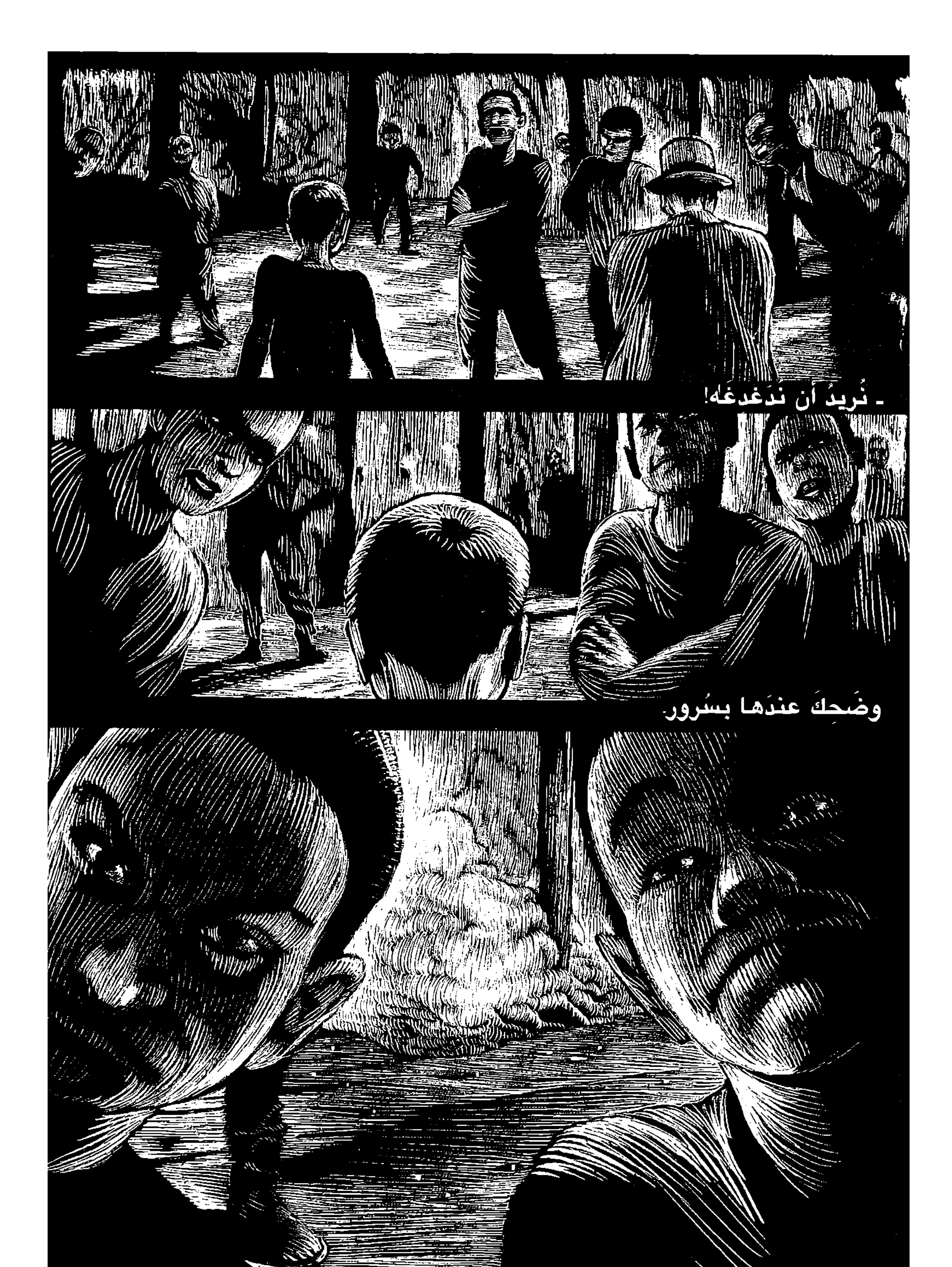
كانَ جوليان يتمشّى في الحديقةِ بلا مُبالاة، وكانَ يتأمَّلُ الناسَ، ويَسيرُ ببُطءٍ إلى أحدِ المقاعِدِ الحَجَرية. ـ «عفواً! أتسمح لي بـ.. هل المقعدُ غيرُ محجوز؟».



برزَتْ أمامَهُ طلائعُ عِصابَةِ الذِّئاب: ـ «أهوَ أنت؟ لقد وقعْتَ أخيراً بينَ أيدينا!».

ـ «هل وقعْتُ بينَ أيديكم؟ أم وقعتُمْ بينَ يَديّ؟». ـ «انتبِه لما تقولُهُ، فلَن يكونَ مجالٌ للضَّحِكِ بعدَ الآن».

تقدَّمَ أحدُ كِبارِ السنِّ وهَمهَمَ قائلاً: ـ «ما هذا؟ ماذا ستفعَلونَ بِه؟»


ـ نُريدُ أن ندَغدغَه!
وضَحِكَ عندَها بسُرور.
ـ ونحنُ كذلكَ أيضاً. جاءَ الكلامُ من الخَلف.



هُرِعَ الإخوةُ السُّودُ من كُلِّ مكانٍ، وتوجَّهَ جوليان نحوَ الولَدِ المَجدورِ مُباشرةً. وبدأ القِتالُ، وأَخَذَتِ الأصواتُ ترتَفِع.

لكنَّ القِتالَ لم يستمرَّ طويلاً، فسُرعانَ ما هربَ الذِّئاب. فأخذَ الفِتيانُ الَّذينَ يعملونَ في تَنظيفِ المَداخِنِ يُصَفِّرونَ ويُنادونَ بعضَهُم للِّحاقِ بِهم. ظهرَ حُرّاسُ الحديقةِ، فتفرَّقَ الإخوَةُ السُّودُ في أرجاءِ المكان.

تُصبِحُ على خَيرٍ يا جوليان، فأنا أشعُرُ بالتَّعب. وأنتَ ستَصحو غداً في وقتٍ باكر. أليسَ كذلك؟ تساءَلَ ألفريدو.

- بلى. لكنْ ألَنْ تأتيَ معي، فإنَّ أنجليتّا تتوقُ للتعرُّفِ علَيك.

تسلَّلَ الاثنانُ من خِلالِ طُرُقٍ مهجورة. ثم سارَ جوليانُ في المُقدِّمة، ليَعرفَ إن كانَ المعلِّمُ وزوجتُهُ نائمَينِ أم لا، فوجَدَهُما نائمَينِ، مثلما لاحظَ أنَّهُ لا تصدُرُ عن غُرفةِ أنسلمو أيَّةُ حركة.

عندما التَقَيا أنجليتّا، قالا الحقيقةَ، فلم تَعُدِ الأعذارُ تنفع. ضحِكَتْ أنجليتّا بصَوتٍ عالٍ، كادَ يعرِّضُهم للخَطرِ، عندما علِمَتْ أنّ جوليان قد ضربَ أخاها.

- لهذا تسلَّلَ إلى المنزلِ بهُدوء. لكنّني أتمنّى أن يدعَ جوليان ينعَمُ بالهُدوء. كادَ ألفريدو ينامُ أثناءَ الحَديثِ، فودَّعَهُم وشيَّعَهُ جوليان إلى أسفلِ العِمارة. وعندما عادَ ذهبَ إلى أنجليتّا الَّتي قالَتْ له:

- إنَّ ألفريدو ليسَ مُتعباً. إنَّهُ مريضٌ جِدّاً.

- أدري. إنَّهُ يَسعُل.

- ليسَ هذا فَحسبْ. إنَّ يَديهِ، كيدَيَّ، ساخِنَتانِ، وقد قالَ الطَّبيبُ.. فحاولَ جوليان مقاطَعَتَها وقد أُصيبَ بالذُّعرِ، لكنَّ أنجليتّا أكملَت:

- لقد لاحظْتُ ذلكَ لحظةَ دُخولِكُما.. إنَّهُ مثلي لن يعيشَ طويلاً، فالطَّبيبُ يرى..

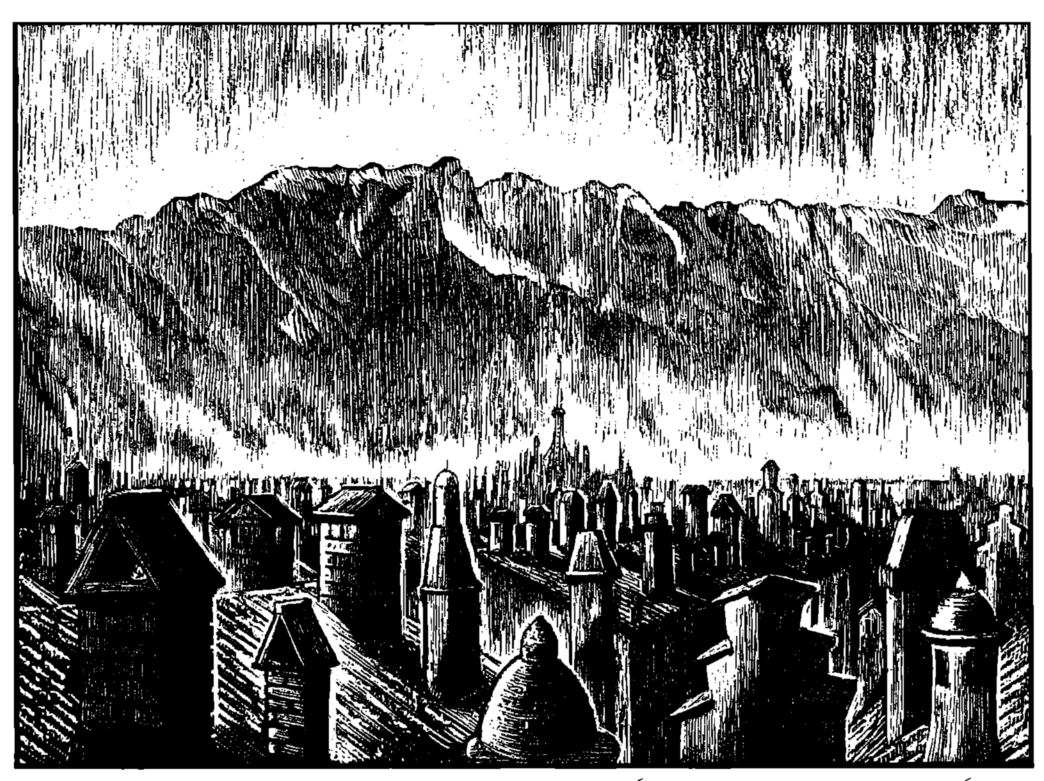
اعتقدَ جوليان أنَّ أُمورَهُ في ميلانو بدأَتْ تتحسَّنُ، لكنَّ معرفَتَهُ أنَّ صديقَهُ الحميمَ يُعاني من مرضٍ خَبيثٍ حَرَمهُ من النَّومِ وجعلَهُ يُصابُ بالأَرَق.

كانت أنجليتّا على حقّ. فبعدَ أُسبوعٍ جاءَ أنطونيو وأخذَ جوليانَ معَه. أرادَ ألفريدو أن يختَلِيَ بجوليان، فخرجَ الجميعُ ودخلَ جوليان إلى المنزل. كانَ الظَّلامُ يَعُمُّ أرجاءَ المكانِ، وكانَ ألفريدو نائماً على الأرضِ ويتنفَّسُ بصُعوبة.



- هل تتألَّمُ كثيراً؟ سألَهُ جوليان وهُوَ يشعُرُ بالاضطِراب، لأنَّهُ لاحَظَ مقدارَ الهُزالِ الَّذي أصابَ ألفريدو، وكيفَ كادَ يتحوَّلُ إلى هَيكَلٍ عظميٍّ، وكيفَ ارتَفعَتْ درجةُ حرارتِهِ أكثرَ مما تُعاني أنجليتّا مِنه.

سعلَ ألفريدو بقُوّة، ثم قذَفَ الدَّمَ من جَوفِه.



بدأَ ألفريدو يَحكي كيفَ فاجأَ جوليان أثناءَ صَيدِهِ للسَّمَك. بعدَها صمتَ الاثنانِ للحَظاتٍ، كانا في أثنائِها يفكِّرانِ في الوَطن.

وفي النِّهايةِ قالَ ألفريدو:

- لقد أدَّينا منذُ تلكَ اللَّحظَةِ يَمينَ الصَّداقَةِ والإخلاص.

كانَ ألفريدو يَبغي من وَراءِ ذلكَ أنْ يُمَهِّدَ كي يَبوحَ له بالسِّرّ. وكانَ على جوليانِ، قبلَ ذلكَ، أن يَعِدَهُ بأن يَزُورَ شقيقَتَهُ بيانكا، بعدَ العَودةِ إلى تيسِّن. وعَدَهُ جوليان بذلِك. كما وعدَهُ أن يعتَنِيَ بها.

ظلَّ جوليان، في اللَّيالي التّالِيَةِ، يتسلَّلُ إلى صَديقِهِ المَريض. حدَّثَهُ ألفريدو أنَّهُ يَتيمٌ، وأنَّهُ جاء إلى ميلانو بمَحضِ اختِيارِهِ، كي يَفِرَّ من خالِهِ، الَّذي كانَ يُريدُ أن يستَوليَ على ميراثِهِ وميراثِ شقيقَتِه. فلم يكُنْ ألفريدو فَقيراً، بل على العكسِ ينتَمي إلى عائلةٍ ثَرِيَّة.

شعرَ ألفريدو بالرّاحةِ عندَما حدَّثَ صديقَهُ جوليان بذلِكَ، ووضَّحَ لهُ ما يطلُبُهُ منه.

- إلى اللقاءِ غداً.

- نعم، إلى اللقاءِ غداً.



في اليوم التالي وجدَ جوليان أنَّ أنطونيو ينتَظِرُهُ أمامَ الباب:

ـ لقد تُوُفِّيَ ألفريدو.

كما أعلمَهُ بأنَّ معلِّمَهُ لن يتحمَّلَ نَفَقاتِ دَفنِهِ، لأنَّ هذا المُعلِّمَ يُنفِقُ كلَّ ما يتجمَّعُ لَدَيهِ من مالٍ على الشَّراب.

وقد أدركَ الفِتيانُ الَّذينَ يَعملونَ في تنظيفِ المَداخِنِ، أنَّهُم لا يستطيعونَ إخفاءَ أمرِ نِقابَتِهِم طَويلاً، لأنَّ كرامتَهُم تُواجِهُ بعدَ وفاةِ ألفريدو امتحاناً قاسياً. وقد تمكَّنوا أن يحصُلوا من معلِّميهم على يومِ عُطلَة. وقد اشترى هَؤلاءِ الفِتيانُ تابوتاً لجُثمانِ صَديقِهِم.

ـ ينبَغي أن نضَعَ فَوقَهُ زَهرَتينِ من اللَّيلَك. قالَ جوليان وهو يُعطي أنطونيو نُقوداً من أجل ذلك.

وقد أمكنَ لِهؤلاءِ الفِتيانِ أن يهَيِّئوا ضَريحَ صَديقِهِم. وقد بدأَتِ الرّوابِطُ تتقاطَرُ لتَعزيَتِهِم. وقد أدهَشَ جوليان أن يجيءَ الوَلدُ المَجدورُ مع رفاقِهِ ويَسيروا، وإن كانوا بَعيدينَ بعضَ الشَّيءِ، في الجَنازَة.. وإن كانَ هذا الصُّلحُ لم يُعجِبْ أنسلمو.

وعندما عادَ جوليان إلى المنزِلِ، قالَتْ لهُ السيِّدَةُ روسّي بإيجاز:

ـ لا طعامَ لكَ اليَوم، لأنَّكَ لم تعمل.

لم يَرُدَّ جوليان بكَلِمَة. فلم يكُنْ قادِراً على الكَلامِ، فانسحَبَ إلى غُرفَتِهِ الصَّغيرة.

كانَ الثَّلجُ يهطُلُ في سوغنونو. وكانَتْ عائلةُ جوليان مشغولَةً بالعَمَلِ في المنزِلِ أو في الاصطَبل. كانَتِ العائلَةُ تجلِسُ في المطبَخِ وتتوزَّعُ العملَ في ما بينها. كانَ بعضُهُم يقومُ بقَطعِ الأخشابِ، وبعضُهُم يجدِلُ القَشَّ، وبعضُهُم يقومُ بالخِياطَةِ والنَّسج. وكانَ الحساءُ السّاخِنُ يُقدَّمُ في تلكَ الأثناءِ، وتُقدَّمُ معَهُ الحكايات.

أمّا في ميلانو فقد كانَتِ الأَجواءُ مُتقلِّبَة. فتارَةً ترتَفِعُ درَجاتُ الحرارةِ، وطَوراً تنخَفِض. وتزدادُ الرُّطوبَةُ تارةً، وتَقِلُّ طَوراً، ويغدو الجَوُّ جافّاً.

وكانَ جوليان يرتَعِشُ حتّى وهو يتصبَّبُ عَرقاً. فقد كانَ دائِماً جائِعاً، حافيَ القَدَمينِ، يَرتدي المَلابِسَ ذاتَها.

سأَلَ المُعلِّمُ زَوجَتَه:

ـ هل تُعطينَ جوليان ما يكفيهِ منَ الطَّعام؟ ثمَّ أضافَ: إنَّهُ يَحتاجُ إلى تغذيَةٍ جَيِّدَةٍ، ليكونَ قادِراً على النُّهوضِ بعَمَلِهِ الشّاق.

ـ اللَّعنة! هل يتوَجَّبُ عليَّ أن أُغَذِّيَهُ ليَزداد قُوَّةً حتّى يَقضِيَ علَينا جَميعاً؟! أَلم يتغَلَّبْ على أنسلمو مع أنَّهُ لا يتناوَلُ إلاّ الحَساء؟

وقد شُفِيَ أنسلمو بعدَ ذلكَ العِراك، لكنَّ جوليان ما يزالُ يُعاني من الأَلَمِ في ضُلوعِه. وما زالَ الجُرحُ الموجودُ في رأسِهِ ينِزُّ دَماً، عندَما يحتَكُّ بالمِدخنَة.

لكنَّ ما كانَ يُعزِّي جوليان ويُسَرّي عنهُ أنَّهُ يقضي ساعاتِ المساءِ مع أنجليتّا، ويلتَقي بالإخوةِ السُّودِ، الّذين أرادوا أن يكونَ خليفةَ ألفريدو. لكنَّ جوليان رفضَ قائلاً:

ـ إنَّني أسكُنُ بَعيداً عنكُم. انتَخِبوا أنطونيو!



لكنَّ الجماعةَ قرَّرَتِ اختِيارَ الاثنَينِ ليكونا رئيسَينِ لها.

وقد لاحظَ المعلِّمُ روسّي أنَّ جوليان لم يعُدْ ذَلِكَ الصَّبِيَّ المَرِحَ فسألَهُ ذاتَ مرَّةٍ وهُما يجلسانِ في المقهى:

- ما بكَ يا جوليان؟ ماذا ينقُصُكَ يا تُرى؟

- إنَّني أشعرُ بالشَّوقِ للوَطَن.

- هذِهِ مَشاعِرُ عابرةٌ ستتلاشى.. إشرَبْ هذا المشروبَ السّاخِنَ، وسترتاح.

- كلاّ! إنَّ صَدري يُؤلِمُني كثيراً.

- هذا من أثَرِ السُّخام. كانَ يَحدُثُ لي ذلك في بِدايَةِ عَملي، لكنَّ ذلكَ الألَمُ سيتلاشى بالتدريج.

- وهل كنتَ تُمارِسُ هذا العمل؟

- أجل. فقد عَمِلْتُ وأنا في سِنِّ العاشِرةِ في تَنظيفِ المداخِنِ. لكنَّ هذا العملَ لم يستمرَّ، لحُسنِ الحَظِّ، إلاَّ مُدَّةَ سِتَّةِ أشهُر.

- ألَم تكُنْ سَعيداً في تنظيفِ المَداخن؟

- كلاّ. لم أكُنْ سَعيداً. ولماذا يتوَجَّبُ عليَّ أن استَشعِرَ السَّعادَةَ في هذا العَمل؟

- حسناً، ولماذا تعملُ به إذن؟

- لأنَّ هذهِ المِهنَةَ كانت مِهنَةَ أبي وجَدّي. وقد رغِبَ أبي أن تظَلَّ هذهِ المهنَةُ مَوجودَةً في العائلة. لقد كنتُ أرغَبُ في أن أعملَ بَنّاءً.

- ولماذا لا تُمارِسُ هذِهِ المِهنَةَ الآنَ؟

- لأنَّني لم أتعلَّمْ هذِهِ المِهنَةَ، ولأنَّ لديَّ عائلةً، لها مَصروفاتٌ كثيرةٌ وعليَّ أن أعمل لألبِّيَ طَلباتِها. ثم التفَتَ إلى جوليان قائلاً:

- هيّا ابتَسِمْ، حتّى لا يقولَ النّاسُ لقد جاءَ المعلِّمُ المُضحِكُ مع صَبيِّهِ المُعتَلِّ المِزاج. هل فَهِمْتَ؟

عندها تماسَكَ جوليان، وصارَ يُنادي بأعلى صَوتِهِ، وحاوَلَ أن يَبدُوَ سَعيداً ومَرِحاً.


- إنَّ الأمرَ خَطِرٌ عندَ دَرَجَةِ الحرارةِ هذِهِ، وعلَينا أن نَنتَظِرَ حتّى تَبرُدَ المدفأة.
- مُستحيل. إنَّ لَدينا ضيوفاً كَثيرين. وقد شكَتِ السيِّدَةُ من هذا الأمر.
- عليكَ أن تصعَدَ إلى الأعلى أيُّها الفتى.
- عليكَ أن تُبَلِّلَ منديلَك بالماء.
- لقد سبقَ له أن فعَلَ ذلِكَ، وسيُنجِزُ المُهمّة.

كانَ الحَرُّ لا يُطاق. ولم يَنْفَعِ المَنديلُ المُبلَّلُ بالماءِ الَّذي ثبَّتَهُ جوليانْ فَوقَ فَمِه. زحفَ جوليان إلى الأعلى، وجِسمُهُ يحتَكُّ بالحَديدِ السّاخِنِ حتّى وصلَ إلى القِمَّةِ حيثُ الحَرارةُ العالِية.. عندَها تذكَّر جوليان ما وقَعَ له:



يعقُبُ الشِّتاءَ القارِسَ
صَيفٌ شَديدُ الجَفاف.
هَمْهَمتِ الجَدَّةُ
أنَّها تُدرِكُ معنى أن يكونَ
حُزيرانُ خالِياً من الأمطار.
ففي سنةِ القَحطِ الأَخيرةِ
الَّتي وقَعَتْ في سوغنونو
ماتَ سَبعةُ أشخاصٍ جُوعاً.

شكى الأَبُ لأنَّهُ
لا شَيءَ يتفتَّحُ في القَيظِ،
وفي مدينة غروتو
رأى الرِّجالُ
أنَّ على القِسّيسِ
أن يطوفَ بالقُرى
علَّ الأمطارَ تَهطِلُ
لكنَّ القِسّيسَ لم يفعلْ
وعندَما رَجاهُ روبرتو
لَبّى القِسّيسُ رَجاءَه.

وقد صاحَ جوليان، وكأنَّهُ
تمكَّنَ من إنقاذ الوادي.

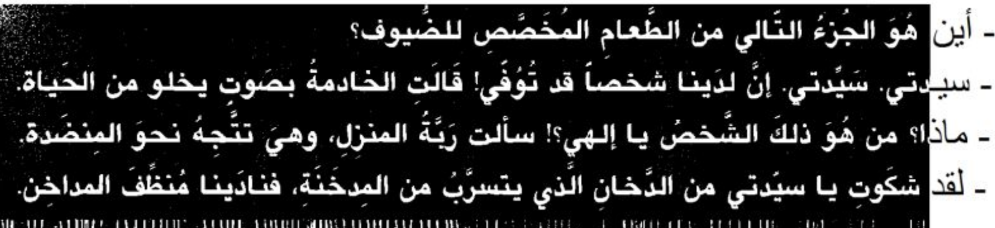
كانَ الرِّجالُ يحمِلونَ تَوابيتَ من قَصديرٍ
ويَطُوفونَ بها
وكانَتْ أجراسُ الكَنائِسِ تَدقُّ،
ورجُلُ الدّينِ يُنادي بأعلى الصَّوت:
- رحمتُكَ يا رَبّ، رحمتُكَ يا ربّ.

وعندما لم تُمطِرْ مساءً
ولم تمُطِر في اليَومِ التّالي،
قالَتِ الجدّةُ:
- هذا عامٌ سَيّئٌ
وستكونُ نهايتُهُ بَشِعة.

أحسَّ جوليان بأنّهُ مُقيّدٌ في المَوقِد:
لا يستطيعُ التّقَدُّمَ إلى الأعلى
ولا يستطيعُ الرُّجوعَ إلى الوراء.
استمعَ إلى الأصواتِ في المطبخِ تقول:
- ماذا يَصنَعُ ذلكَ الولَدُ هُناكَ كُلَّ هذا الوقت؟
- لا داعي للخَوفِ، فهُوَ فتىً كُفء.
- إنَّهُ غيرُ قادرٍ على أنْ يُجيب.

وعندما لم يستَجِبْ جوليان للنّداءِ الثّالثِ، حاولَ المُعلّمُ أن يُمسِكَ بهِ من قَدَمَيهِ، سقطَتِ الحِجارَةُ أوّلاً، ثمَّ إسمَنْتُ البِناء..
بعدَها صاحَتِ الخادِمَةُ فجأةً:
- انتَبِهوا!
- هل مات؟





- أين هُوَ الجُزءُ التّالي من الطَّعام المُخَصَّص للضُيوف؟
- سيدتي. سَيِّدتي. إنَّ لدَينا شخصاً قد تُوُفّي! قَالَتِ الخادمةُ بصَوتٍ يخلو من الحَياة.
- ماذا؟ من هُوَ ذلكَ الشَّخصُ يا إلهي؟! سألت رَبَّةُ المنزِل، وهيَ تتَّجِهُ نحوَ المِنضَدة.
- لقد شكَوتِ يا سيِّدتي من الدَّخانِ الّذي يتسرَّبُ من المِدخَنة، فنادَينا مُنظِّفَ المداخِن.

-هل طلبتُم الطَّبيب؟
- لا دَعي عنك ذلك. إنَّ الطبيب كازيلاً مدعُوٌّ لدَينا وهوَ الآنَ هُنا.
- نعم أنا هُنا. ماذا يحدُث؟ ردَّ الطَّبيبُ الّذي كانَ يَقِفُ إلى جانبِ الباب.

بدأَ الطَّبيبُ يُعيدُ إلى جوليان قُدرَتَهُ على التَّنفُّسِ، حتّى استطاعَ أن يفتَحَ عَينَيه. بعدَ ذلكَ عالجَ الطَّبيبُ ما في رأسِ جوليان من جُروحٍ وأمَرَ مُعلِّمَهُ بأن يدَعَ صَبِيَّهُ الهَزيلَ يستَريحُ، وقال:

ـ إنَّ حالَتَهُ خَطِرة. فأنا لم أرَ في ميلانو كُلِّها طفلاً جائعاً إلى هَذه الدَّرجَة.

أدرَكَ المُعلِّمُ ما يقولُهُ الطَّبيبُ، لأنَّهُ أُصيبَ بالذُّعرِ عندَما رأى جوليان يسقُطُ من المدخَنَةِ كالميِّت.

لكنَّ زَوجَتَهُ لم تَرغَبْ في أن تتفهَّمَ المسألَةَ على الإطلاق. فقد تشاجَرَتْ مع زَوجِها، عندما رأَتْهُ قادِماً إلى المنزِلِ وجوليان يستَنِدُ عليه. وقد رفضَتْ أن تَمُدَّ إلى جوليان يدَ العَونِ وتَركَتْ زَوجَها يتكفَّلُ بشُؤونِ صَبيِّه. وقدِ ازدادَ الشِّجارُ في اليوم التّالي، عندما اقترحَ المُعلِّمُ أن يحُلَّ أنسلمو محلَّ جوليانِ لبِضعَةِ أيّام.

لكنَّ المُعلِّمَ ذهبَ وحيداً إلى العَمل. وعندَما رجَعَ في المساءِ، ولم يكُنْ قد جمعَ إلاّ القليلَ من المالِ، وجدَ عَرَبَةَ حَنطورٍ واقفةً في ساحةِ المنزِل. فأخبرَهُ النجّارُ أنّ العَرَبَةَ جاءَتْ لهم. وعندَما وصلَ المنزِلَ عرفَ المُعلِّمُ روسّي الطَّبيبَ فسلَّمَ علَيهِ وانحنى له.

همسَ المُعلِّم:

ـ هل ساءَ وضعُ أنجليتّا؟

ـ كلاّ. لقد جاءَ الطبيبُ لزيارةِ الصبيّ.

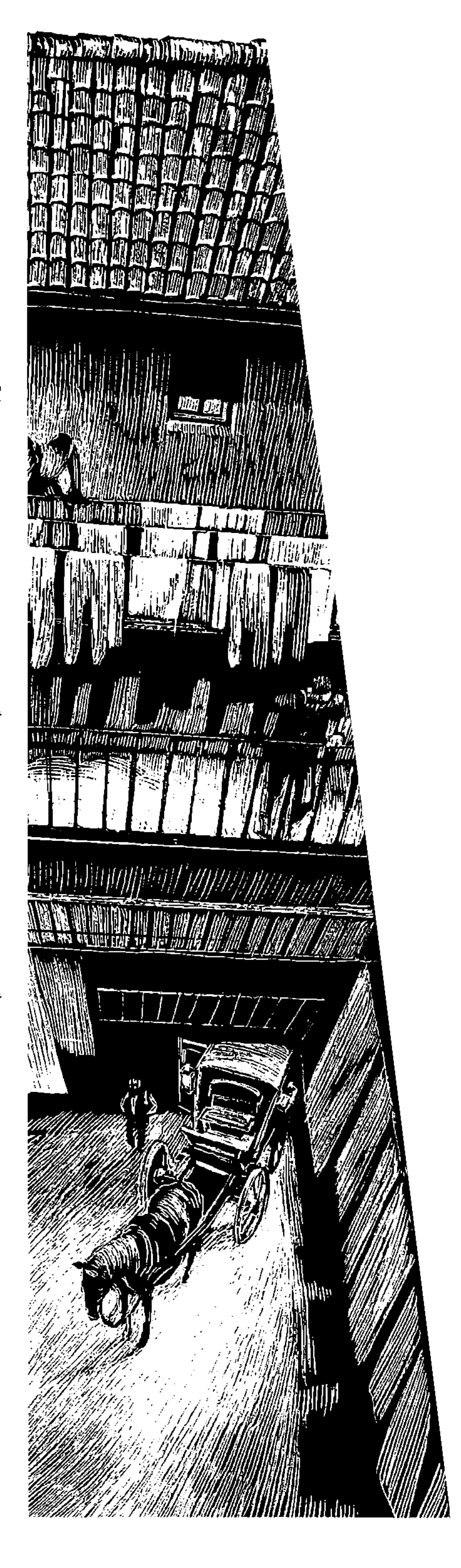
ـ وهل أنسلمو مَريض؟

ـ لا. لقد كانَ اليومَ في السُّوق.

ـ إذنْ لقد جاء على ما يبدو لزيارَةِ الصبيّ.

ـ ماذا؟ أيجيءُ الطَّبيبُ لأجلِ هذا؟!

كانَ الطَّبيبُ يَجلِسُ إلى جِوارِ جوليان:





- من أيِّ بلَدٍ أنت؟
- أنا من وادي ڤيرزاسكا.
- إذَنْ فأنتَ من تيسّن. فأجابَ جوليان بالإيجاب.
- أنا من مدينةِ لوغانو.
- وألفريدو هو، أو على الأصح، كانَ من..

صمتَ جوليان، وتأمَّلَ المكانَ ليرى إن كانَ ثمَّةَ أحدٌ يُصغي، وشرعَ يَحكي للطَّبيبِ عن ألفريدو وعن الإخوةِ السُّود. وعندما انتَهى مَسحَ الطَّبيبُ على رأسِه، ونادى مُعلِّمَه. كانَت زوجَةُ المُعَلِّم حاضِرَةً، ولوَّحَتْ بقَبضَتِها بوَحشِيَّة، عندماَ قال الطَّبيبُ: يجبُ على جوليان أن يستريحَ، لأنَّهُ لا يُعاني من تَسمُّمٍ بسببِ ثاني أُكسيدِ الكَربون فحَسْب، بل إنّ رئتَيهِ قد أُنهكَتا. والأسوأُ من هذا كُلِّه أنَّهُ يُعاني من سُوءِ التَّغذية.

- هذا غيرُ صَحيحٍ، فإنَّهُ يتناوَلُ يوميّاً..
- تستَطيعينَ أنْ تتحدَّثي بما تَشائين. لكنَّني أرى آثارَ سُوءِ التَّغذيَةِ واضحةً. ثمّ التفتَ إلى زَوجِها وسألَه:
- كم تكسَبُ من النُّقودِ يوميّاً؟
- من خَمسٍ إلى ستِّ ليرات.
- ماذا؟ لا تكذِب! إنَّهُ يكسَبُ ما يقرُبُ من ثماني ليرات. وقد وصلَ المبلغُ في الأسبوعِ الماضي إلى تِسعِ ليراتٍ، إضافةً إلى أنَّهُ يدفَعُ جُزءاً من دَخلِهِ على الشراب. قالتِ الزَّوجة.
- حسناً. سأدفَعُ لكُم خمسَ ليراتٍ مُقابلَ راحةِ جوليان، وستأخُذونَ الآنَ عشرَ ليرات، وعشرَ ليراتٍ أُخرى عندَما أرى أنَّكُم نفَّذتُم ما اتَّفقنا عليه، فالصَّبيُّ ينبغي أن..
- ينبَغي أن يرتاحَ ويشعرَ بالسَّعادَةِ كأنَّهُ في الجنَّة. ردَّتِ الزَّوجَةُ بعُذوبة.

وعندما دفعَ الطَّبيبُ النُّقودَ أضافَتِ الزَّوجة:

- إنَّني سأقومُ بنقلِهِ ليَنامَ في غُرفَةٍ بجانِبِ غُرفةِ أبنائي..

- من هذا؟ سألَتْ أنجليتّا عندَما رأتْ أُمَّها وهي تُرتِّبُ الفَرشَةَ الّتي سينامُ عليها جوليان، ويُساعِدُها رجُلٌ غَريب.

- هذا هو الطَّبيبُ الّذي أعادَني إلى الحياة. إنَّهُ من لوغانو، أي إنَّهُ من بَلَدي. قالَ جوليان وهو يشعُرُ بشَيءٍ من الفخر.

تحدَّثَ الطَّبيبُ مع أنجليتّا قليلاً، أثناءَ ترتيبِ مَنامِ جوليان، وبعدَها أرسلَ السيِّدةَ روسّي إلى الصَّيدَلِيّةِ وإلى الجزّار.

التفتَتْ أنجليتّا إلى جوليان وقالَت:

- لن يُقاطِعَنا أحدٌ بعدَ اليَوم. فحدِّثني عن مَجيئِكَ إلى ميلانو منذُ البداية.. وعندما رَجَعَتِ السيِّدَةُ روسّي أرشدَها الطَّبيبُ إلى كَيفيَّةِ استِخدامِ الأدويَةِ وبيَّنَ لها أنَّ الدَّواءَ المسحوقَ لأنجليتّا، وقطراتِ الشّرابِ لجوليان، ثمَّ نظرَ إلى ما اشترَتْهُ من لَحمٍ وقال:

- هذا للاثنَينْ. اصنَعي لهُما حَساءً دَسِماً مع الزُّبدَةِ والخُضار.

- إنّ كُلَّ من يأكُلُ عِندي لا بُدَّ أن يشبَع. قالتِ السيِّدةُ روسّي.

- حسَناً، لكن لا يجوزُ أن يظهَرَ الصبيُّ، بعدَ اليَوم، مَحروماً من اللَّحمِ والمَرَق.

- هل سنُكرِّرُ الكلامَ ثانيةً. قالتِ الزَّوجَةُ وهي تُلَوِّحُ بذِراعِها.



ضَحِكَ الطَّبيبُ وقال: «لا. سأتوقَّفُ وأمضي». لكنَّهُ استدار قبلَ أن يَمضِيَ وقال:

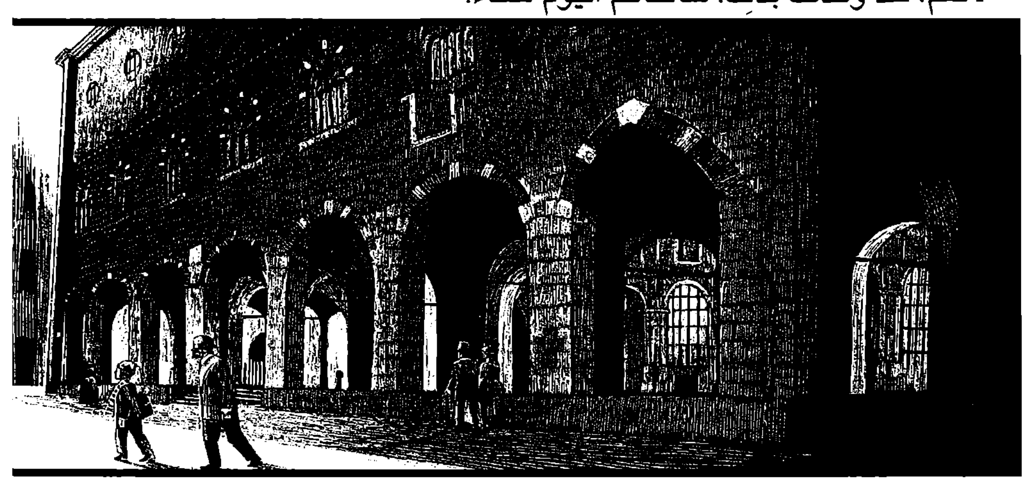
- سأبعَثُ لكُم، لمَزيدٍ من الاطمِئنان، طَعاماً من الفُندُق.

كانَ جوليان يشعُرُ وكأنَّهُ في الجَنَّة. فلم يسبِقْ لهُ أنِ استَلقى فوقَ فَرشَةٍ حَقيقيّة.

صارَ جوليان يشرَبُ القَهوةَ بالحليبِ مع الخُبزِ الأبيض، ويتناوَلُ عندَ الغَداءِ ما لذَّ وطابَ من أطعمَةِ الفُندُق، ويحتَسي المرقَ المطبوخَ باللَّحمِ عندَ المساء. وقد استَمتعَتْ أنجليتّا بصُحبَةِ جوليانَ الّذي روى لها حكايتَهُ مراراً. وبالمقابل فقد قرأتْ لهُ حكاياتٍ من أحدِ الكُتب. وقد فُوجِئَ الطَّبيبُ عندَما عَلِمَ أنَّ جوليان عاجزٌ عن القِراءَةِ والكِتابَةِ، وأنَّهُ لم يدخُلِ المدرسة.

وعندما صارَ جوليان قادِراً على الحرَكةِ، وتمشّى في الممرِّ، نظرَ إلى السيِّدةِ روسّي بحِدَّةٍ.. فقد طلَبَ منهُ الطَّبيبُ أن يذهَبَ إلى عِيادَتِه.

كانَ يقِفُ أمامَ فُندق «إلى مدينة روما» رجلٌ يرتَدي زِيّاً رسميّاً، خاطَبَ جوليان بقَولِه
- عليكَ أن تُغادِرَ الفُندُق!
- لكنَّ لديَّ مَوعِداً مع الطّبيب. إنَّه ينتَظِرُني.
- إذنْ دَعْهُ ينتظِرُ وانصرِفِ الآنَ، فإنَّكَ تجعَلُ الضُّيوفَ يَفِرُّون.
وعندما أخرجَ جوليان بطاقَةَ الطَّبيبِ من مِحفَظَتِه، لوَّحَ الرَّجُلُ لفتىً كانَ يقِفُ بَعيدا فجاءَ الفتى وقادَ جوليان إلى الطَّبيبِ، الَّذي كانَ واقِفاً ينتظِرُه.
- ماذا نفعلُ الآن؟ سأَلَ الطَّبيب.
- أظنُّ أنَّكَ كُنتَ تُريدُ أن تُريَني السّوق.
- إذنْ دَعنا نذهَبُ إلى غاليريا حيثُ المحلاّتِ التجارية.
هُناكَ دخلا محلاًّ لبَيعِ الأحذِيَةِ الجِلديَّةِ الفاخِرةِ للرِّجالِ والنِّساء.
- أيَّ حِذاءٍ تُفَضِّل؟ سأَلَهُ الطَّبيبُ وهو يستَمتِعُ بالدَّهشَةِ الّتي بدَتْ على وجهِه.
- أنا؟ لقَدِ اعتَدْتُ أن أمشِيَ حافياً في سوغنونو.
كانَتْ تَجرِبَةُ وَضعِ الحِذاءِ في القَدَمِ جديدةً على جوليان، وقد قرَّرَ عندَ العَودةِ إلى المنزِل وهوَ يحمِلُ سَراويلَ وقُمصاناً وجاكيتاً وحِزاماً وقُبَّعَةً وشالاً أن يجلِسَ ليُعيدَ التأمُّلَ فيها وعندَما رأى ذاتَهُ في مِرآةِ المقهى، كانَ يرتَدي مَلابِسَ أنيقَةً تُشبِهُ مَلابِسَ سيِّدٍ من الوُجَهاء
- هل أُعجِبْتَ بذاتِك؟
- لا أدري.. كيفَ يتَوجَّبُ عليَّ أن أشكُرَك.
- يُسعِدُني أنَّكَ تتحسَّنُ، وعلينا أن نحتَفِلَ بذلك.
وعندما تناولا الطَّعامَ في أحدِ المطاعمِ قالَ الطَّبيبُ فجأَةً:
- إنَّني مُسافرٌ غداً إلى لوغانو.
- لكنَّكَ تُريدُ الذَّهابَ معي للتَعرُّفِ على الإخوَةِ السُّود.
- نعم، لقد وعدتُك بذلِك. سألقاكُمُ اليومَ مَساءً.





وعندَما التقى جوليان بالطَّبيبِ في مساءِ اليَوم، جاءَ جوليان وهو يَرتَدي ملابِسَهُ القَديمةَ، أما ملابسُهُ الجَديدةُ الّتي أهديَتْ إليهِ فقد رتَّبَها بحرصٍ وأخفاها في غُرفَتِه. ولم يُدخِلْ إلى المنزلِ سوى الهَدِيَّةِ الّتي بعَثَ بها الطَّبيبُ إلى أنجليتّا.

وعندَما تجاوَزا ووصَلا إلى الشّارعِ الّذي يقَعُ خلفَ منطَقَةِ القِدّيسَةِ بابيلا، كان جوليان حَريصاً على أن يتمكَّنَ الطَّبيبُ من عُبورِ الشَّوارِعِ والممرّاتِ الضيِّقة. جَرى الأمرُ ببُطءٍ، حتّى تمكَّنا من الوُصولِ إلى الباب. وعندَما قَرعاه سمِعا من يقول:

- كلمةُ السِّرّ!

- تيسينو..

استُقبِل جوليان بتَرحابٍ كَبيرٍ، فقدِ افتَقَدَهُ أصدِقاؤُه. لكنَّ الصَّمتَ رانَ على الجَميعِ عندما دخلَ الطَّبيبُ، ثمَّ بَدأوا يتحدَّثونَ على نَحوٍ غَيرِ مُنَظَّم.

- هُدوء! قالَ جوليان بحيَويّة.

حدَّثَهُم جوليان عنِ الطّبيبِ الّذي أنقذَ حياتَهُ، ورَعاهُ صِحّيًا بعدَ ذلكَ، وكيفَ استَطاعَ أن يقفَ في وَجهِ السيِّدَةِ روسّي.

- صحيح. قالَ الطّبيبُ، ثمَّ أضاف: لقد سمِعْتُ الكثيرَ عن حياتِكُمُ الصَّعبةِ هُنا، وأريدُ أن أعرِفَ المَزيدَ، لهذا أتَيتُ إليكُم.



شرَعَ الصِّبيانُ بالحَديثِ عن حياتِهم واحِداً تلوَ الآخر. فهُم إمّا أيتامٌ أساءَ أولياءُ أُمورِهِم مُعامَلتَهُم، أو فُقَراءُ مُعوَزُونَ اضطُرَّ آباؤُهُم إلى بَيعِهم. ولم يأتِ أحدٌ منهُم إلى ميلانو مُختاراً.

وكانَ الطَّبيبُ يرفَعُ شُعلَةَ المصباحِ عالياً، كي يتمكَّنَ من رُؤيَةِ هَؤلاءِ الصِّبيَة. وقد ظلَّتِ الأجسادُ المهزولَةُ الّتي تَرتَدي الخِرقَ البالية، رُغمَ البَردِ الشَّديدِ، تحكي عن حَياتِها المأساوِيّةِ وعن نتائجِ تلكَ الحَياة. وعندما سألَهُمُ الطَّبيبُ عن أمكِنَةِ النَّوم والطَّعام المُخَصَّصةِ لهم، ضحكَ أحدُهُم وقال: «إنَّ من غيرِ المَسموحِ أن يزدادَ وَزنُنا، لأنَّنا لنَ نستَطيعَ عندَئذٍ الصُّعودَ إلى المِدخنَةِ أو النُّزولَ منها».

وبعدَ أنِ استمَعَ الطَّبيبُ إلى مُلاحَظاتِهم قال: «اسمَعوا! لقد وقَّعَ آباؤُكُم - أو أَولِياءُ أُمورِكُم - عُقوداً، وهذا يجعَلُ الأمرَ صَعباً. أما ما أستطيعُ أن أفعَلَهُ لكُم، فهوَ أن أكتُبَ عن مُشكِلَتِكُم، وسأُقابِلُ القُنصُلَ السويسريَّ في ميلانو، وأنشُرُ في الصُّحُفِ شَيئاً عن الحياةِ الّتي تعيشونَها، أعني الصُّحُفَ في تيسّن، لأنَّهُ لا أحدَ يستطيعُ أن يُساعِدَكُم هُنا».

ثمّ وضعَ يدَهُ على كَتِفِ أنطونيو وسألَهُ إن كانَ لَدَيهم صُندوقٌ يجمعونَ فيهِ المالَ، وأعطاهُم بعضَ المالِ وطلَبَ منهُم أن يشتَروا بهِ مَلابِسَ دافِئَةً تَقيهِم بَرْدَ الشِّتاءِ القارِسَ، حتّى يستَطيعوا البقاءَ على قَيدِ الحَياة. ثُمَّ ودَّعَهُم آمِلاً أن يلتَقِيَ بهِم في لوغانو في سويسرا، حيثُ يُقيمُ ويعرفُ جوليان عُنوانَه.



وفي أثناءِ خُروجِ الطَّبيبِ من المَنزِلِ إلى الشّارِعِ سألَهُ أنطونيو:

ـ لماذا لا تستطيعُ مُساعدَتَنا إلاّ في لوغانو؟ وماذا تقصِدُ بهذا القَول؟

ـ لقد أوضَحْتُ لكُمُ الأمر. ردَّ الطَّبيب.

فقالَ جوليان:

ـ إنَّهُ يعني.. ثمَّ توقَّفَ عنِ الحَديثِ للَحظاتٍ وقال:

ـ علَينا أنْ نهرُبَ من هُنا.

ـ هذا ما لم أقُلْهُ على الإطلاق. هل تَفهمون؟ تُصبِحونَ على خَير.

رجَعَ جوليان إلى أصدقائِهِ، فوجَدَهُم قد توزَّعوا المبلغَ الّذي أعطاهُ لهُمُ الطَّبيبُ، فحصَلَ كلٌّ منهُم على ليرة. أمّا باقي المالِ فقد وضَعوهُ جانباً لمن يَرغَبُ منهُم في الهَرَب.

عادَ جوليان، بعدَ ذلكَ، إلى المنزلِ بأقصى سُرعةٍ يستطيعُها. فلاحَظَ أنَّهُ ما زالَ يُعاني من المرَضِ، لكنَّهُ كانَ يشعُرُ بالفَرحِ للهدايا التي تلقّاها. لكن.. لكنَّ الهَدايا قدِ اختَفَت.

سألَ عنها أنجليتّا، فلم يكُنْ لدَيها جَواب. وعندَما أرادَ النَّومَ، لاحظَ أنَّهُم قد أزالوا الفَرشَةَ الّتي كانَ يَنامُ فوقَها.

ـ إنَّ عليكَ أن تَعودَ للنَّومِ في غُرفَتِك! هكذا أمرَتْ أُمّي.

فعادَ جوليان إلى غُرفَتِهِ الكئيبة.



ـ استَيقِظْ وقِف! أيقَظَتِ السيِّدَةُ روسّي جوليان من نَومِهِ وهي تَضرِبُهُ بقدمها. وعندما أخذَ يُفَتِّشُ عن هَديَّتِهِ في كُلِّ مكانٍ، سألَتْهُ عمَّ يُفتِّش.

ـ أُفَتِّشُ عن مَلابسي الجديدةِ الَّتي اشتَراها ليَ الطَّبيبُ، وعن حِذائي المصنوعِ من الجِلد وعن حِزامي وقبَّعَتي وشالي.

ـ أجل. ويُمكِنُكَ أن تفتِّشَ عن معطَفِكَ، ومِظَلَّتِكَ، وعن.. قالَتِ السيّدةُ روسّي بصوت مُرتَفِعٍ، ثمَّ أضافت: هل تَزعُمُ بأنَّني قد أَخَذْتُ منكَ تلكَ الأشياء؟

دخلَ المعلِّمُ إلى المطبَخِ، وهوَ لا يعرفُ ماذا يحدُثُ حقيقَةً، ثم توجَّهَ للعَمل.

جاءَتِ الظَّهيرَةُ ولم يَظهَرْ للمَلابِسِ أيُّ أثَرٍ، وصارَ على جوليان أن يأكُلَ في غُرفتِهِ الصَّغيرَةِ، ولم يُقدَّمْ له سِوى الحَساء.

سمعَ جوليان خَطواتٍ تتحرَّكُ بانتِظامٍ وكأنَّها خَطَواتُ ضابِط. كانَ أنسلمو يتحرَّكُ فَخوراً. عندَها صاحَ جوليان بقُوَّة:

ـ ماذا؟ إنَّهُ حِذائي!

ـ ماذا؟ ردَّتِ السيِّدَةُ روسّي بغَضَب.

ـ أجَل. لقد سرَقَ أنسلمو أمتِعَتي كُلَّها، وهو يضَعُ في قَدَمَيهِ حِذائي.

لم يكتَرِثْ أنسلمو، وواصَلَ احتِساءَ المَرَقِ وظلَّ يَحكي كيفَ ذَهبَ مع أُمِّهِ صَباحَ اليَومِ إلى السُّوق.



ولأنَّ جوليان لم يتراجَعْ صاحَتِ السيِّدَةُ روسّي مُجدَّداً:

ـ إنَّكَ ما زِلْتَ تعتَقِدُ أنّني سرَقْتُ مَلابِسَك.

ـ نعم. و..

عندَها لم تستطِعِ السيِّدَةُ روسّي السَّيطرَةَ على نَفسِها، فأخذَتْ تضربُ جوليان حتّى منَعَها زَوجُها من الاستِمرارِ في ذَلك. لكنَّ جوليان قالَ بهُدوءٍ:

ـ هذا هو الحِذاءُ الّذي أهدانيهِ الطَّبيب.

ـ غبيّ. صاحَ المُعلِّمُ عندَها، ثمَّ قال: هُناكَ آلافُ الأحذيةِ من هذا النَّوعِ في ميلانو، فكَيفَ تستطيعُ إثباتَ أنَّ هذا..

ـ سأُحْضِرُ الطَّبيب. همَّ جوليان بالرَّكضِ ثمَّ توقَّفَ فجأةً، عندَما تذكَّرَ أنّهُ سافر في صباحِ اليوم..

كانَ جوليان يرغَبُ حتّى الأمسِ في البَقاءِ معَ المُعلِّم روسّي وعائلتِه. أما اليَومَ فقَد أدركَ أنَّ عليهِ أنْ يَهرُبَ وأن لا مكانَ لَهُ عندَ هذهِ الأسرة. تسلَّلَ جوليان إلى أنجليتّا، عندَما نامَ مُعلِّمُهُ، وكانَتْ زَوجَتُهُ وابنُهُ في المطبَخِ، ثمَّ اختَفى.

أمضى جوليان عصرَ ذلكَ اليَومِ في قَبوِ الإخوَةِ السُّودِ، وظلَّ يستَمِعُ في تلكَ الأثناءِ إلى الأصواتِ في الخارِجِ، وكانَ الوقتُ يمرُّ بهِ بَطيئاً.

بدأَتْ طلائِعُ الأصدِقاءِ بالعَودَةِ، وكانوا يُدهَشونَ لوُجودِ جوليان في مَنزِلهِم. ثمَّ جاءَ آخرونَ منهُم وأخبَروهُ أنَّ البَحثَ جارٍ عنه. ومعَ ذلكَ فقدِ استطاعَ جوليان أن يتسلَّلَ إلى منزلِ مُعلِّمِهِ وأن يتحدَّثَ مع أنجليتّا.

أهدَتهُ أنجليتّا خاتَماً ذهَبيّاً، وطلبَتْ منهُ أن يَعُدَّهُ تَذكاراً منها. فتردَّدَ جوليان في قَبولِهِ، لأنَّها ورِثَتْ هذا الخاتَمَ من عَمَّتِها.

ـ خُذْهُ، وعليكَ أن تتذكَّرَني وأن تحكيَ لأنيتا عنّي.

وبعدَ أن ودَّعَتْهُ سألَتْهُ:

ـ كيفَ سأعرفُ أنَّكَ وصَلْتَ سالماً؟

ـ سنُسافِرُ، وسيكونُ عَددُنا بينَ ثلاثةٍ وأربعة. وسيعلَمُ زُملائي الباقونَ في ميلانو بأخبارِنا.

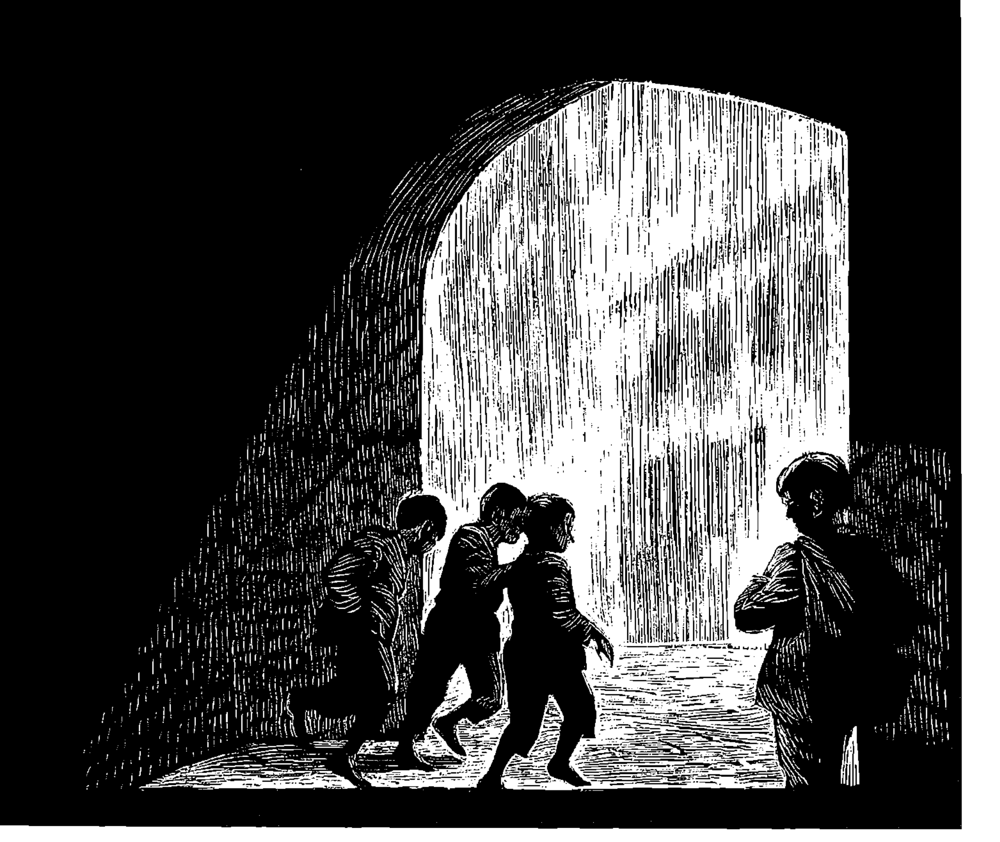


ذهبَ جوليان بعدَ ذلكَ إلى غُرفَتِهِ، فسمِعَ صَوتاً قادِماً من المَطبَخ. كانَ أنسلمو يتوقَّعُ عَودةَ جوليان، لكنَّهُ أغفى خلالَ انتِظارِهِ لهُ، وبعدَ أن أحسَّ بوُجُودِهِ صَحا ليطلُبَ النَّجدة.

سمِعَ جوليان صَوتَ خَطَواتٍ تَجري خلفَه. وعندَما همَّ بالتَّسَلُّلِ من فُتحَةِ البابِ الخَشَبِيَّة، أمسكَ بهِ أحدُهُم من ساقِيهِ، لكنَّ جوليان تملَّصَ منهُ وواصَلَ الهَرَب. بعدَها سمِعَ جوليان مجموعَةً منَ الناسِ تهبِطُ الدَّرجَ إلى باحَةِ المنزِلِ بحثاً عنه.

وقد وقَعَ لدانتي، وهوَ أصغَرُ المجموعَةِ الهارِبَةِ سنّاً، أمرٌ مُشابِه. فقد أرسلَ مُعلِّمُهُ عدَداً من الكلابِ تَعدو خَلفَهُ، لكنَّ عِصابَةَ الذِّئابِ استطاعَتْ أن تُنقِذَهُ، وأخفَتْهُ عنِ الأنظارِ، لأنَّ ساقَهُ كانَتْ تَنزِف. وقد سَعِدَ الإخوَةُ السُّودُ بهذا العَمَلِ، لكنَّهُم خافوا أن يعرِفَ النَّاسُ مكانَ إقامَتِهِم.

وفي اللَّيلِ تسلَّلَ أربعةٌ من الإخوَةِ السُّودِ هم: أنطونيو وأوغُوستو ودانتي وجوليان إلى خارِجِ المدينةِ عن طَريقِ القَنال.







تتميَّزُ صباحاتُ كانونَ الأوَّلِ عادَةً بالبُرودَةِ والوُضوح. فقد رأى الأولادُ الأَربعةُ، عن بُعد، مَجموعةً من النّاسِ ومعَهُم عَددٌ من الكِلابِ تَقِفُ إلى جِوارِ رجالِ الجَمارِكِ، فأدرَكوا أنَّ الشُّرطَةَ تبحَثُ عنهم.

ـ لا بُدَّ أنَّ أَحداً قد وشَى بنا.

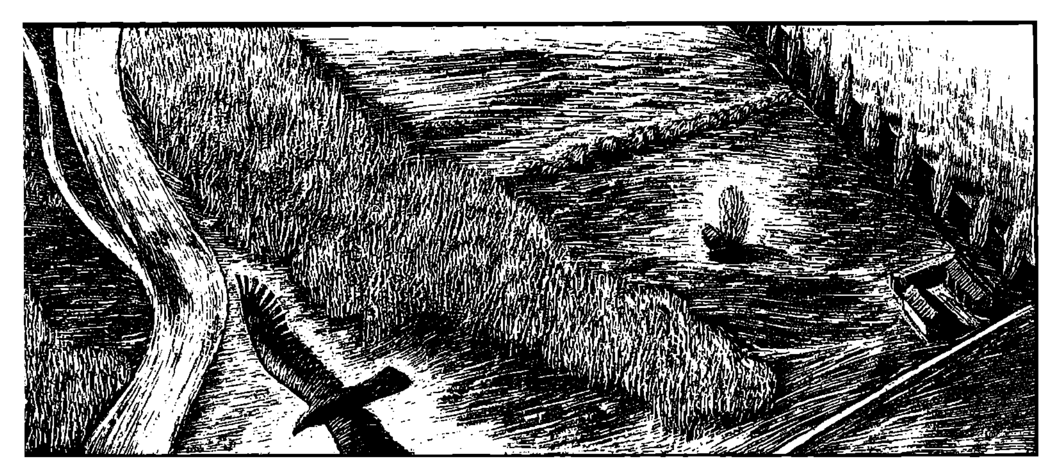
ـ ليسَ بالضَّرورَة ـ قالَ أنطونيو ـ إذا كانوا يبحَثونَ عنّا، فإنَّهم سيَقِفونَ على امتدادِ الطَّريقِ الذّاهبِ إلى الشَّمال. دعونا نُواصِل.

لكنَّ جوليان كادَ يَصيح:

ـ إنَّني أرى الرَّجُلَ ذا النَّدبَةِ، وأرى أنسلمو إلى جانِبِه.

عندَها دخلَ الفِتيانُ إلى الغابةِ، ليَعودوا إلى الجِسرِ الأَخير. وفي الطَّريقِ التَقَوا بأحدِ الصيَّادينَ الّذي نقلَهُم بقارِبِه إلى الشاطئ الآخرِ، فتَجنَّبوا بذلكَ المُرورَ بالقُرى، وبدَأوا بالمَشيِ بينَ الجِبال.





تجرَّأَ أوغوستو وذهبَ إلى أحدِ المَنازِلِ وسأَلَهُم عنِ الطَّريق، فدلَّه الرَّجُلُ، عن طيب خاطرٍ، على الطَّريق. لكنَّ الشُّكوكَ بدأَتْ تتسرَّبُ إلى الرَّجُلِ عندَما رأى أوغوستو مَصحوبا بعدَدٍ منَ الصِّبيان.

فهل جاءَ الفُرسانُ ليَبحَثوا عنهُم ها هُنا؟

فجأةً سمِعوا نُباحَ الكِلابِ وطَلَبَ النَّجدة.

فصاحَ بهم أنطونيو أن يهرُبوا ويتوَجَّهوا إلى الغابةِ في الحال. لكنَّهُم رأَوْا أنَّ الهُروب إلى الغابةِ غيرُ ذي جَدوى، وأنَّ الأفضلَ أن يتوَجَّهوا صَوبَ مَخازِنِ الغِلالِ، فتوجَّهوا صَوبَها لأنَّ الغاباتِ وراءَها كثيفَة. لكنَّهم لم يستطيعوا الإسراعَ، نَظراً لإصابةِ دانتي، وقد تَراجَعَتْ كِلابُ الشُّرطةِ، عندما نَبَحَتْ عَليها كِلابُ المنزِل.

قال أنطونيو:

ـ هيّا إلى الوَطن.. إلى الماما!

لم يكُنْ أيٌّ منهُم مُستَعِدّاً للمِزاحِ، فقد كانوا مَشغولينَ بتَنشيفِ أجسادِهِم وملابِسِهِم. وقد ظلُّوا في مَخبَئِهِم حتّى انصرفَتْ فِرقَةُ التَّفتيشِ، ثمَّ نهَضوا وقد أرادوا أن يقطَعوا النَّهرَ وُصولاً إلى الجبال.

ناموا في أحدِ مَخازنِ القَشِّ فارتاحوا، لكنَّ جُرحَ دانتي ظَلَّ يَنِزُّ دَماً، وكانَ يصحو مَذعوراً عندَ سَماعِهِ لنُباحِ الكِلاب.

استَيقَظوا عندَ الفَجرِ، وساروا لمّا تلاشى الضّبابُ بعدَ شُروقِ الشَّمس. وكانوا يتمنَّونَ لو يلقَونَ أحَداً ليسألُوهُ عنِ المسافَةِ الّتي تفصِلُهُم عن الحُدودِ السويسريّة.

وعندَما رأَوا أحدَ الفَلاّحينَ وهو يَملأُ عربَتَهُ بالقَشِّ، لم يتَرَدَّدوا وسأَلوه.

كانَ جوليان يتمنّى أنْ يدُلَّهم على الحُدودِ وأن لا يَشِيَ بِهم للشُّرطة.

ـ لماذا تطلبُونَ مِنّي أن أخفِيَكُم داخلَ العَرَبة؟

شرعَ أنطونيو يحدِّثُهُ عن مُعاناتِهِم في ميلانو، فقاطَعَهُ جوليان قائلاً:

ـ إنَّ أبي فلاّحٌ هوَ الآخر.

ـ صحيح! ماذا ينفَعُني ذلكَ عندَما يُلقُونَ القَبضَ عليَّ؟ هل تُريدُني أن أُعدَمَ بدلاً منكم؟

ـ ألا تسمعونَ صَوتَ نُباحِ الكِلاب؟ قالَ أنطونيو وهُوَ يُشيرُ إلى غابَةِ شَجرِ الحَور. عندَها مدَّ جوليان يَدَهُ إلى جَيبِهِ وأخرج مِنها عُلبَةً صَغيرَةً وفتَحَها وقالَ للفَلاّح:

ـ خُذْ هذا! وأرجوكَ ساعِدنا!

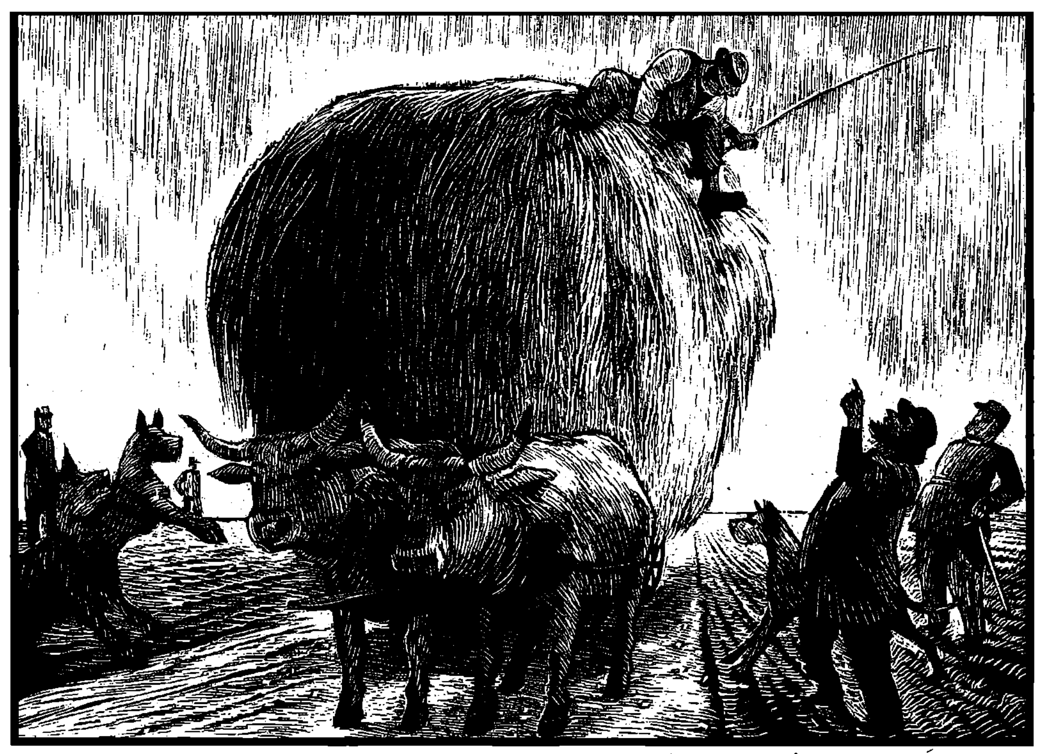
نظرَ الفلاّحُ مُتَعجِّباً للخاتَمِ الذَّهَبيّ:

ـ هل سَرقتَه؟

ـ كلاّ. إنَّهُ هَديَّةٌ للذِّكرى.

ـ حسَناً، تَمتَمَ الرَّجُلُ، اصعَدوا واختَفوا عنِ الأنظار.





ـ هيّا أَبعِدُوا كِلابَكُم عَنّي وإلاّ ضَربْتُها بالسَّوط.

ـ هل جُنِنْت؟ إنَّ الكِلابَ لا تُؤذيك.

ـ لكنَّها تُؤذي ثيراني. ماذا تُريدون؟ وماذا يَعني هَذا كُلُّه؟

تقدَّمَ الشُّرطيّانِ نحوَ الفَلاّح وشَرَعا يُوضِحانِ الأمرَ له.

أما الرَّجُلُ ذو النَّدبَةِ فظَلَّ يُواصِلُ الصِّياحَ والشّتمَ ويَضرِبُ كَومةَ القَشِّ بغَضَب. كانَ الأطفالُ في داخِلِ الكَومَةِ ينكَمِشُونَ، ويتأفَّفونَ وهُم يَشُمُّونَ رائِحَتَهُ الكَريهة. وكانوا يرغَبُونَ في الزَّحفِ نحوَ الوَسَطِ، لكنَّهُم أدركوا أنَّ هذا التَّحرُّكَ سيُؤدّي إلى اكتِشافِهم.

هُنا سأَلَ الفَلاّحُ عن مُكافَأَتِهِ إن دلَّهُمْ على الأطفال.

ـ خَمسٌ وعُشرون ألفَ ليرة. هكذا وعَدَ أَربابُ العَمل.

أظهرَ الفَلاّحُ مَلامحَ تأثُّرٍ خادِعَةٍ وقال:

ـ هذِهِ المكافأَةُ لا تُدفَعُ إلاّ لأطفالٍ غيرِ عاديّينَ حَقيقةً.

غصَّ جوليان كُمَّهُ، وكادَ أنطونيو يَجهَشُ بالبُكاء. لكنَّ الفلاّحَ تحدَّثَ بهُدوءٍ وقال:

ـ أربعَةُ أطفال. آه. أنتُم تتحدَّثونَ عن أربعةِ أطفالٍ.. لقد أرسَلْتُهُم إلى الجِهةِ المُقابلةِ، عندما سألوني عنِ الطَّريقِ، وها أنذا أُرشِدُكم بَدلاً من أن تذهَبُوا في اتِّجاهٍ خاطِئ. كم أستحِقُّ يا تُرى الآن؟

لوَّحَ الرَّجُلُ ذو النَّدبَةِ بقَبضَتِه، وسحَبَتِ الشُّرطَةُ كِلابَها، وساروا جميعاً عبرَ الحَقلِ المُقابِل.

وعندَما وصلَ الفَلاّحُ إلى مَنزلِه صاحَ ضاحِكاً:

- انزِلوا أيُّها الرُّكّاب!

وعندما وصلَ ابنُهُ قادِماً من القَريَةِ، أخبرَهُ وهوَ ما زالَ بالبابِ أنَّ الشُّرطَةَ تُفتِّشُ عن لُصوص. وقد تعجَّبَ من هَؤلاءِ الضُّيوفِ ومن حكايَتِهم فهُم ما زالوا صِغاراً في مِثلِ سِنِّه، ومعَ ذلكَ فهُم هارِبون.

جفَّتْ ملابِسُ الصِّبيَةِ، وكانَ الحَساءُ السّاخِنُ الذي تناولوهُ لذيذاً ومُغذّياً، وقد أكَلوا معَهُ الخُبز. وبينما كانَتْ زَوجَةُ الفَلاّحِ تُنَظِّفُ جُرحَ دانتي وتَقومُ برَبطِه، نَصَحَهُمُ الجَميعُ بمُواصَلَةِ السَّير.

أخَذَهُم ابنُ الفَلاّحِ عندَ مُنتَصَفِ اللَّيلِ إلى داخِلِ المنزِل، فشَربوا الحَليبَ وزَوَّدَتهُم زَوجَةُ الفَلاّحِ بكَميَّةٍ منَ الخُبزِ ليأكُلوها أثناءَ الطَّريقِ، ثُمَّ ودَّعوهُم وساروا في طُرقٍ خَفِيَّةٍ لا يسلُكُها غيرُ المُهَرِّبين.

- هذا هو بحرُ لوغانر، وهُناكَ تقَعُ سويسرا.

قالَ ابنُ الفَلاّحِ ذلكَ وودَّعَهُم، وأعطى جوليان عُلبَةً صَغيرةً قالَ إنَّها من أبيه. بدأَ الأطفالُ يُراقِبونَ المِنطقَةَ من مَخبئِهم، ثم رَكضوا نحوَ إحدى السُّفُن. وما كادَتِ السَّفينَةُ تتحرَّكُ حتّى رأَوا قارِبَينِ يتحرّكانِ نحوَهُما.

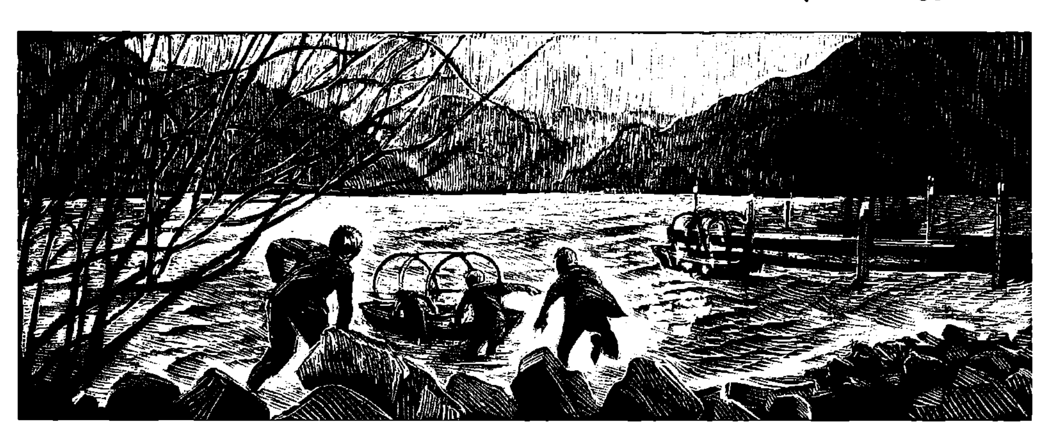
- قِفوا، قِفوا. شُرطَة!

- ألا ترى الرَّجلَ صاحِبَ النَّدبةِ هُناك؟ وقد أطلَقَ أحدُهُمُ النّارَ في الهَواء. أخذَ أوغوستو يُجَذِّفُ، لكنَّ المُطارِدينَ اقترَبوا.

- أسرِعوا! أسرِعوا! صاحَ دانتي الَّذي كانَ يجلِسُ دون أن يُشارِكَ في التَّجذيف.

ثمّ نظرَ في تلكَ الأثناءِ إلى الأمامِ فصاحَ مَسحوراً:

- انظُروا.. الضَّباب!



كانَ مُراقِبُ الجَمارِكِ ريڤا قد اعتادَ أن تَجلِبَ الرّيحُ الغَربيَّةُ ألواناً من القَوارِبِ تَرسُو في اللِّسانِ القَريبِ من الشّاطِئ. لكنَّهُ لم يُشاهِدْ، قبلَ اليَوم، قارِباً يحملُ أربعَةَ أطفالٍ نائمين.

أُصيبَ الصِّبيَةُ بالذُّعرِ عندَما أطلَّ عليهِم مُراقِبُ الجمارِكِ ريڤا، لكنَّهُمُ ابتَهَجوا عندَما عَلِموا أنَّهُم صاروا في سويسرا، فضَحِكوا ثمَّ بَكوا.

كانَ المُراقِبُ قد لاحظَ أن قَوارِبَ التَّفتيشِ قدِ انطَلَقَتْ منذُ يَومِ أمسِ على الشاطِئِ المُقابل. وقد تَرَكَ الأربعَةَ يُبحرونَ، لكنَّهُ لم يَدُلَّهُم على الطَّريقِ لأنَّ ذلكَ يعني أنّه يعرِفُ أينَ يَنبَغي البَحثُ عَنهُم.

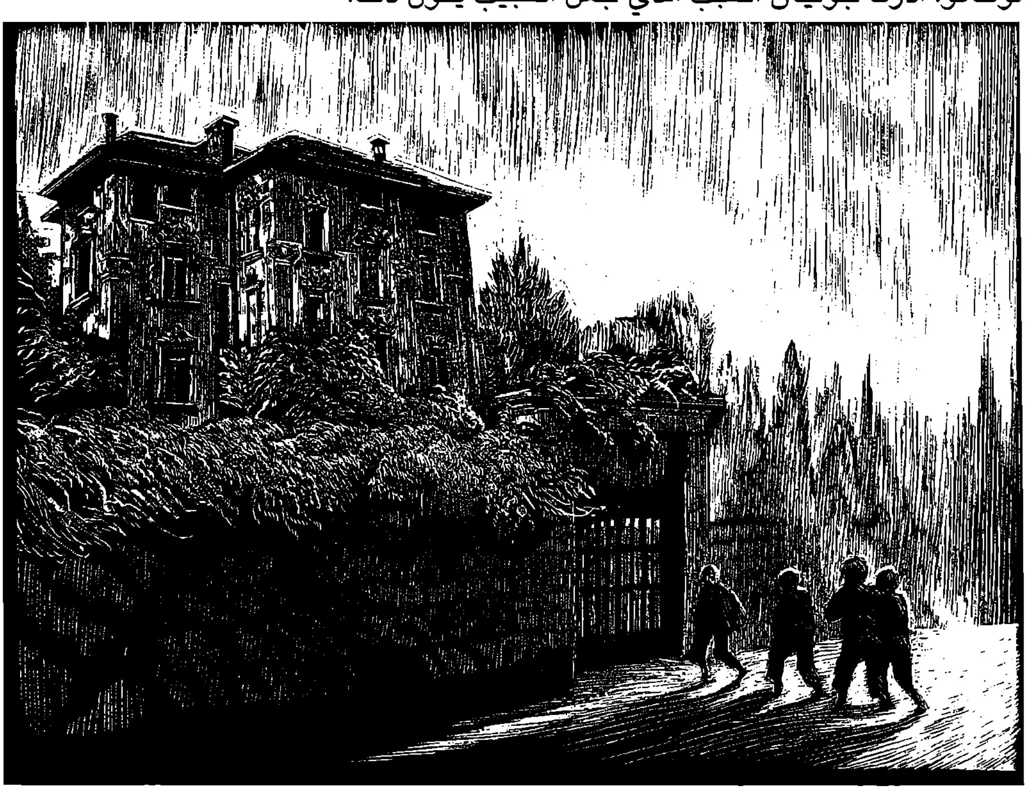
انطلَقُوا، دونَ أن يأكُلوا أو يَشربوا، يركُضونَ في الشَّوارِع. وعندَما وَصَلوا إلى طلائِعِ المَنازِلِ في لوغانو سألوا عن منزِلِ الدُّكتور كازيلّا.

ـ إنَّهُ هُناكَ فَوقَ التلَّةِ، ولا يُمكِنُ لأحدٍ أن يُخطِئَ العُثورَ عَليه.

لم يكُنِ المنزِلُ فَخماً، كما توقَّعوا. كانَ فيلاً عاديّة. ولم يكُنِ الطَّبيبُ في المنزِلِ آنذاكَ، لكنَّ أحداً دفعَ الخادِمَةَ وسأَلَ المُجتَمِعين:

ـ هل جوليان واحِدٌ منكُم؟

وقد فُوجِئَ الدكتور كازيلاّ عندَما عادَ إلى المنزِلِ مَساءً، بالسُّرعَةِ التي نفَّذَ فيها الصِّبيَةُ نَصيحَتَه. لكنَّهُ أصَرَّ على أنَّهُ لم يَنصَحْهُم بالهَرَب. وعندَما ظَلُّوا في اليومِ التالي في مدينةِ لوغانو، أدرَكَ جوليان السَّبَبَ الَّذي جعَلَ الطَّبيبَ يقولُ ذلك.



كانَ جوليان يقِفُ إلى جانِبِ عَربَةِ الطَّبيبِ، بينَما كانَ في زِيارَةٍ لأحَدِ المرضى. وهُنا رأى جوليان الرَّجُلَ ذا النَّدبَةِ على الطَّرفِ الثّاني للشّارِع. انزَوى جوليان وَراءَ العَربَة. لكن الرَّجُلَ لم يَلحَظْهُ، وظلَّ في طَريقِهِ إلى أحدِ المَقاهي لا يَلوي على شَيء.

وما كادَ الطَّبيبُ يعلَمُ عن ذلِكَ، حتّى سارَ معَ جوليان إلى مَركزِ الشُّرطَة.

ـ السيّدُ الطَّبيبُ هُنا؟ ما الخِدمَةُ الَّتي أستطيعُ أن أُسديَها لكَ؟

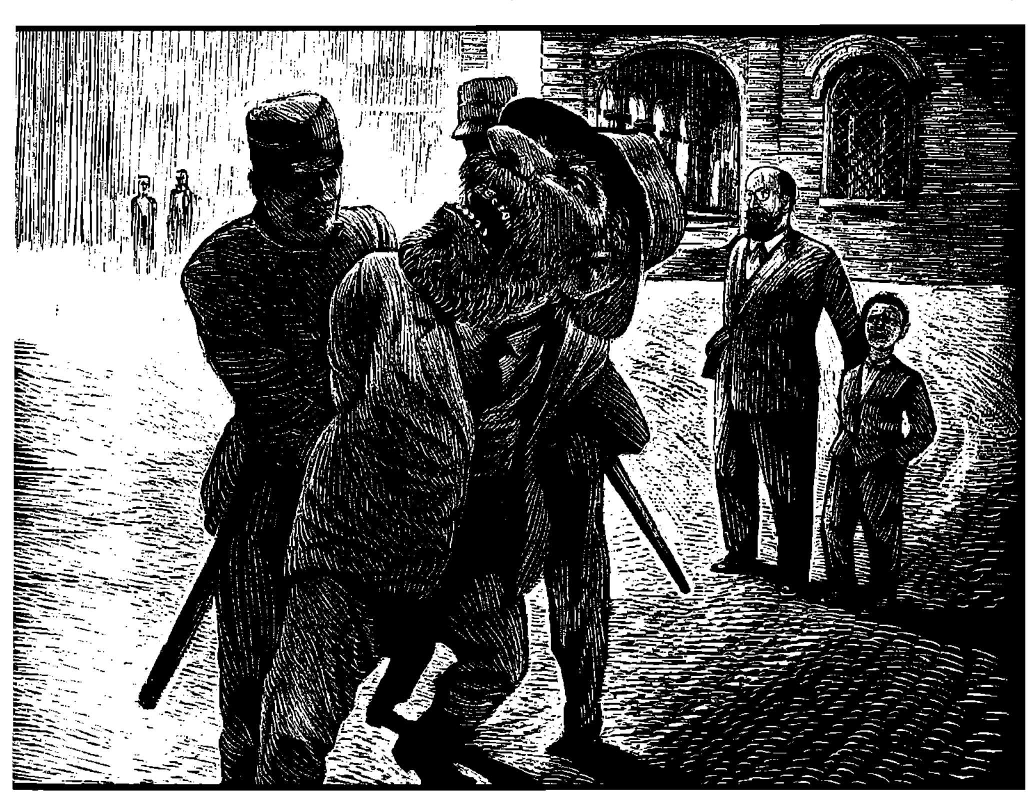
لم يتحدَّثِ الطَّبيبُ عن ميلانو، أو الصِّبيانِ، بل سألَ الضابِطَ إن كانَ ما يزالُ يتذكَّر مأساةَ القارِب.

اتَّصَلَ الضّابِطُ بشُرطيَّينِ، فذَهبا إلى المَقهى، فأنكَرَ الرَّجُلُ ذو النَّدبَةِ أنَّهُ هُوَ أنطونيو لوئيني. وعندَما استدعَوْا جوليان، صاحَ الرَّجُلُ ذو النَّدبَة:

ـ هذا هُوَ اللِّصّ. لقد سَرَقَ رَبَّ العَملِ الَّذي يعمَلُ عِندَهُ، وقد أخَلَّ بالعَقد. ينبَغي اعتِقالُه هُوَ، لا أنا.

وقد وُجِّهَتِ التُّهمَةُ لأنطونيو لوئيني بتحمُّل جُزءٍ من مَسؤولِيَّةِ الكارِثَةِ البَحريَّةِ.

لقد حُكِمَ علَيهِ بالسَّجنِ لمدَّةِ خَمسِ سَنواتٍ ـ هكذا حَدَّثَهُمُ الطَّبيبُ في ما بعد نقلاً عن جِهاتٍ قضائيّةٍ ـ وبعدَها سيَجري ترحيلُهُ عنِ البِلاد.



وقد أدرَكَ كُلٌّ من أنطونيو وأوغوستو ودانتي أنَّ الطَّبيبَ كانَ مُستاءً من صَمتِ السُّلُطاتِ الحُكوميَّةِ عن هَذا اللَّونِ منَ التَّعامُلِ معَ الأطفال. لهذا رَعى الطَّبيبُ هَؤلاءِ الفِتيَةَ ووجَدَ لكُلٍّ واحِدٍ منهُم حِرفَةً يَعيشُ منها، بمُساعَدَةِ المِهَنِيِّينَ المُنتَشِرينَ في المِنطَقة.

أما جوليان فقد أرسَلَهُ إلى المَدرسَةِ، وكان يَعيشُ في مَنزِلِ الطَّبيبِ الواقِعِ فوقَ التلَّةِ وبخاصَّةٍ في العُطَلِ المدرسِيَّة.

وبعدَ مُرورِ تِسعِ سَنواتٍ، كانَ ثمَّةَ شابٌّ مع زَوجَتِهِ يتَّجِهانِ إلى سوغنونو. وعندَما كانَ يُسأَلُ عمّا يُمكِنُ أنَ يفعَلَهُ هُناكَ شابٌّ مثلُهُ ينتَعِلُ حِذاءً كانَ يَرُدُّ بقَولِه:

- أنا المُعلِّمُ الجديد.

كانَ المُعَلِّمُ هو جوليان، أما زَوجَتُهُ فهي شَقيقَـهُ ألفريدو. فقد وَفى جوليان بوَعدِهِ في البَحثِ عَنها، وقد اهتَمَّ الدكتور كازيلاّ بها ورَعاها، كما رعَى زَوجَها. والغَريبُ أنّ جوليان لم يَذهَبْ طِيلةَ تلكَ المُدَّةِ إلى قَريَتِه، ولم يَبعَثْ بأخبارِهِ إلى والِدَيه. لهذا كانَ توّاقاً لمَعرفَةِ رُدودِ أفعالِهِم، ولمعرفَةِ ما إذا كانَتْ جدَّتُهُ لا تزالُ على قَيدِ الحَياةِ، وتَوّاقاً لمعرفةِ أخبارِ أَخويهِ التَّوأَم. وقد ذكَّرتْهُ زَوجَتُهُ وتُدعى بيانكا بأنيتا وردَّةِ فعلِها كذلك.

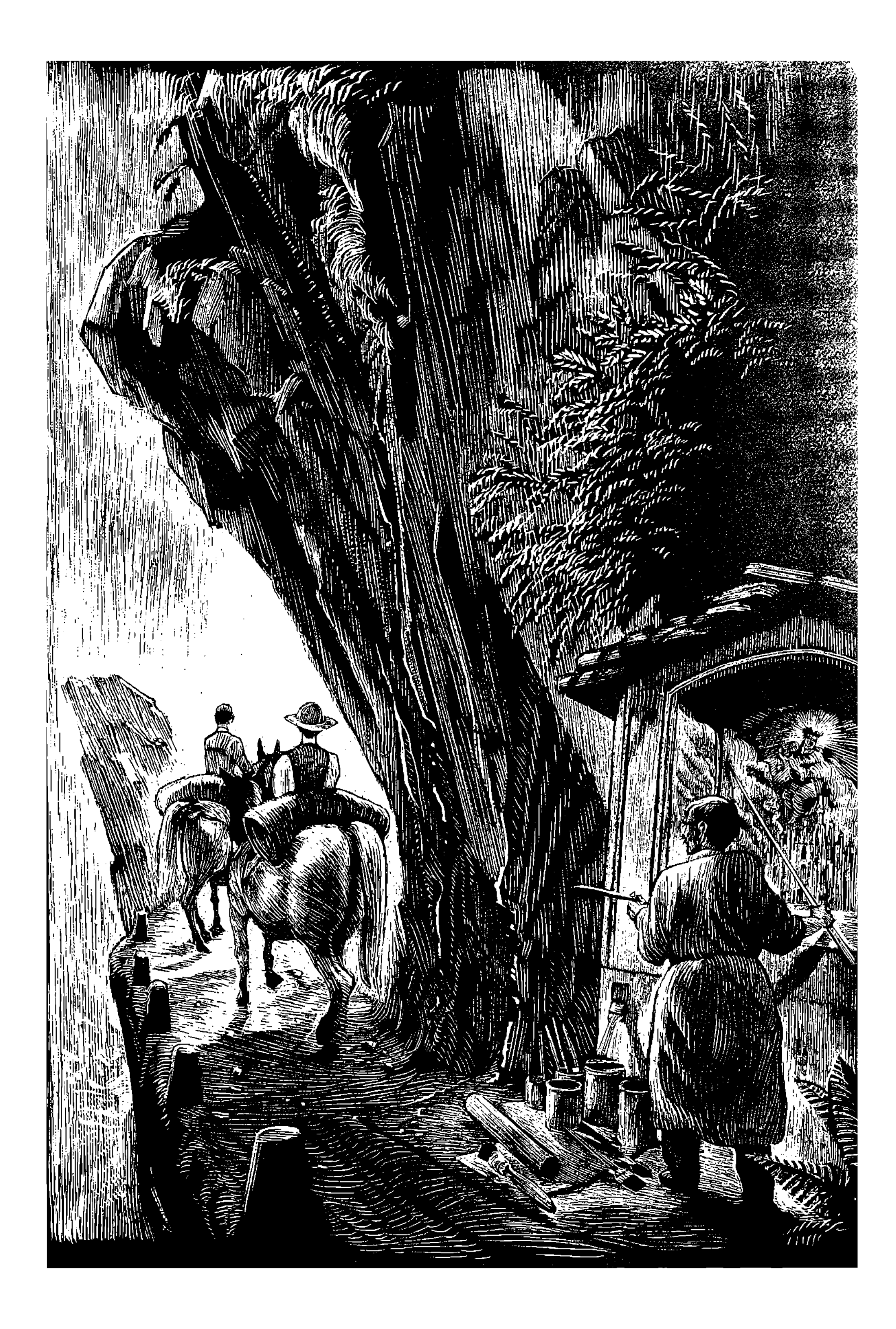
توقَّفا، قبلَ الوُصولِ إلى سوغنونو، في القَريةِ الواقِعةِ على مَقرُبَةٍ منها ليَستَريحا من رُكوبِ الخَيلِ، وليَستَطلِعا أخبارَ القَرية. وبعدَ أن قدَّمَ صاحِبُ المطعَمِ لهُما الطَّعامَ، جلَسَ على طاوِلَةٍ حَجَريَّةٍ قريباً منهُما، وشرَعَ يتحدَّثُ عن رَداءَةِ الطَّريقِ وضَرورةِ إصلاحِها. فالتقَطَ جوليان الخَيطَ منهُ ليُوضِحَ أنَّ من المُستَحيل حُدوثَ تَقدُّمٍ دونَ أن ينتَشِرَ التَّعليمُ في المجتمع.

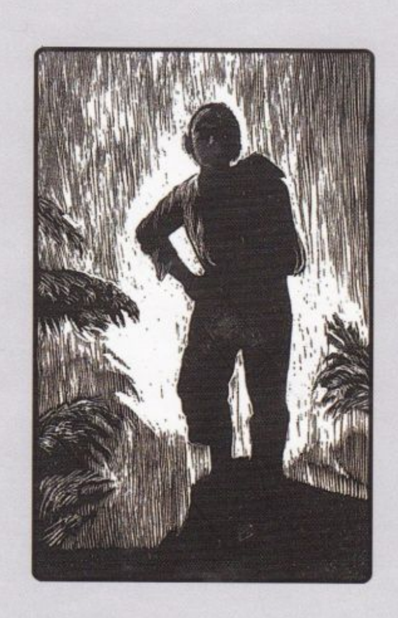
- أنتَ تَقولُ ذلكَ لأنَّكَ معلِّم. ردَّ صاحبُ المطعم.

- كلاّ. لقد صِرتُ مُعلِّماً، لأنَّني أسعى للدِّفاعِ عنِ العَدالة.

نظرَتْ بيانكا بودٍّ إلى صاحبِ المطعَم، الَّذي سَرَّحَ نظَرَهُ في التِّلالِ المُحيطةِ وقالَ:

- إنَّ وُجودَ شارعٍ مُعبَّدٍ هُوَ الأفضَلُ، ومَنْ يَدري ماذا تخبِّئُ الأيامُ للوادي في المستقبل؟





يضطر جوليان للذهاب إلى ميلانو كي يعمل في تنظيف المداخن، من أجل أن يساهم في إعالة أسرته وعلاج أمه المريضة. يعيش جوليان هناك في ظروف غير إنسانية، ويتعرّض للاضطهاد والجوع والمرض، ويموت بعض زملائه جرّاء المرض. فكيف تمكّن جوليان من النجاة، ومن ساعده؟ وكيف رجع إلى وطنه؟ إنها قصة عن معاناة الأطفال توجب الاهتمام بعالم الطفولة.







المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة